حرب ٦ تشرين الأول ١٩٧٣

عندما نشبت حرب ٦ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٧٣ كان قد مضى على إبعادي من الجيش السوري عشر سنوات، فكنت أتابع أخبارها كأي مواطن على شاشة التلفاز، أو المذياع. وأكتب عنها لأنها حدث مهم لا يصح القفز عنه في هكذا مذكرات.

ومن المفيد التذكير بأن السوريين سموها «حرب تشرين التحريرية» والمصريين سموها «حرب العاشر من رمضان» بينما سماها العدو «حرب يوم الغفران».

ولأنشط ذاكرتي، وأعرض للقارئ معلومات مفيدة مختصرة، فقد استعنت بعدد من المذكرات لأهم من كان لهم دور فيها. وأولها مذكرات الرئيس أنور السادات[1].

ومن يقرأ مذكراته، ويذكر تصرفاته، يدرك أنه شخصية فريدة، يعتقد أن الله اختاره لدور مهم في تاريخ مصر.. ويرى نفسه سياسيّاً محنكاً ولكنه كان مستبدّاً مقنَّعاً، وشخصاً نرجسيّاً معتدّاً بنفسه متشبثاً بآرائه، مع أنه استطاع تمثيل الإنسان الهامشي في عهد عبد الناصر، ربما لقناعة داخلية بعدم جدوى منافسته...، ولا ريب أنه مخلص لبلده، محب للسلام، صبر وانتظر دوره، مع أن الغيرة كانت تحرق قلبه فيما أظن، ويظهر ذلك في مذكراته.

وأظن أن ثقته الزائدة بنفسه تحولت إلى غرور جعله يفرض رأيه على مستشاريه، وعلى القادة العسكريين، متجاوزاً حدود السياسي في التدخل في العمل العسكري، ما أثر على نتيجة الحرب. مع أنه يذكر في مذكراته (ص ٣١٨): «وقد أوضحت للقذافي وزملائه أنني لا أوافق على هذا المشروع وبالذات على

---

(١) البحث عن الذات (قصة حياتي)، أنور السادات، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م.

تعيين القذافـي لقيادة القوات المسـلحة، فقد كانت لنا تجربـة في هذا انتهت بالفشل، عندما يتولى من يعمل بالسياسـة القيادة الفعلية للقوات المسلحة في تجارب مريرة لنا في معركة ١٩٥٦ ثم في حرب اليمن وأخيراً في معركة ١٩٦٧». كما سنلاحظ لاحقاً، وما كتبه عن حرب رمضان مفيد وإن كان فيه تبجُّح ممجوج وتجنٍّ على القادة العسكريين.

وقد يرى بعض القراء تجاوزاً مني فيما أكتب. وجوابي أن الرئيس ليس شخصاً عاديّاً، هو شخصية عامة، ولتصرفاتها أثر على الأمة كلها. وهذه وجهة نظري تحتمل الخطأ والصواب، أذكرها لأهمية ما ورد فيها في الحديث عن نتائج المعركة.

والمذكـرات الثانية التي اسـتعنت بها هـي مذكرات الفريق سـعد الدين الشاذلي[١]، وأثناء قراءتها تجد نفسـك أمام عسكري محترف مؤمن بربه، واثق بنفسه. همُّه ضباطه وجنوده، يتباهى بجيش أفنى عمره فيه، ويحرص على سلامته. يحسن تقدير العدو والصديق، لغته سليمة وحجته دامغة، ويبدو أنه كان يسجل مذكراته يوماً بيوم على الرغم مما كان يواجهه. وبدا غير مقتنع بأسلوب السادات ما جعل مذكرات الاثنين تتضمن نقـداً لاذعاً من كل منهمـا للآخر، وللقارئ استنتاج أيهما أقرب إلى الصواب.

كما استفدت مما كتبه محمد حسنين هيكل[٢]، وبخاصة كتابه «أكتوبر ٧٣ ـ السلاح والسياسة» مع أنني أراه منحازاً، ومنحه الله قلماً يستطيع أن يدافع عن أي قضية. وربما أفاض في الحديث عـن أمور لا يعرفها غيره، فلا يسـتطيع أحد مناقشته فيها.

وقرأت عن الجبهة السورية مذكرات مصطفى طلاس[٣]، وكان وزير الدفاع في الحكومة السورية، وأعرفه حسن المعشر، محدثاً بارعاً، يمتاز بثقافة واسعة، وراوية غزير الحفظ للشعر العربي، يصلح لمهمات كثيرة ليس بينها وزارة الدفاع، ومذكراته تتفق مع ما ذكرته من صفات، فهي رواية شائقة ذكرتني بقصة أبي زيد

---

(١) الفريق سعد الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، دار بحوث الشرق الأوسط الأميركية، سان فرانسيسكو، ط ٤، ٢٠٠٣م.

(٢) هيكل، محمد حسنين، أكتوبر ٧٣ ـ السلاح والسياسة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

(٣) مصطفى طلاس، مرآة حياتي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، بلا رقم طبعة وتاريخ.

الهلالي التي كان شباب قريتنا يستمتعون بروايتها في سهراتهم. فيها تفصيلات، كثيرٌ منها يتناقض مع ما أعرفه، ومع ما ذكره الشاذلي، وفيها استطرادات لا تليق بهكذا مذكرات، فبينما يروي قصة اجتماع عسكري لمناقشة خطة حرب، ينتقل بك إلى رواية «نكتة بذيئة»[1]. وربما يتبع هذا الأسلوب لتشويق القارئ وتسليته. ومع ذلك يمكن الاستفادة مما أورده بتقاطع ما يذكره مع ما يورده الآخرون.

واطلعت أيضاً على مذكرات قائد أحد الألوية الذين شاركوا فعليّاً في الحرب على الجبهة السورية، العميد وليد حمدون، وأعرفه شخصيّاً أيضاً فهو مستجدي في الكلية العسكرية، وخدمنا معاً مدة قصيرة في الجولان، وكان يمكن أن يكون عسكريّاً محترفاً ناجحاً لولا انغماسه بالعمل الحزبي والسياسي. وأظن أن وصفه لما شاهده وحضره من المعركة كان دقيقاً، ويمكن للقارئ ملاحظة نقاط التبجح والمغالاة بسهولة.

واستفدت مما كتبه باتريك سيل[2] في كتابه «الأسد والصراع على الشرق الأوسط» والذي يمكن عدُّه مذكرات حافظ الأسد، وهو يوجز في فصل خاص حرب تشرين ١٩٧٣ ويظهر فيه جليّاً أن الأسد اطلع على ما كتب ووافق عليه، ويلفت فيه فقدان الثقة بين الأسد والسادات كما يبرز خداع القادة المصريين للسوريين وإخفاء بعض النوايا عنهم منذ ما قبل الحرب بحسب الشاذلي أيضاً. والكتاب ـ على طريقة الصحفيين ـ مشوق، وكتب بأسلوب إنشائي قليل التوثيق، وفيه تحاليل سياسية كثيرة. ويمتاز بمعلومات سريَّة تتعلق باتصالات بين السادات والأميركان يصعب الاطلاع عليها إلا لمن كان كباتريك سيل.

علمت بالحرب قبل وقوعها

قبيل شهر رمضان زارني ضابط سوري صديق قديم، أعرفه من أيام الدراسة، ولكن صداقتنا توطدت بعد أن سكن في البناية التي أسكنها، وانسجمت عائلتانا. وكان يشغل يوم زيارته قائد مصلحة المركبات في الجيش السوري بعد وصوله إلى رتبة عالية.

---

(١) ينظر مصطفى طلاس «مرآة حياتي»، مرجع سابق، العقد الثالث ص٦٣٢.

(٢) باتريك سيل، الأسد والصراع على الشرق الأوسط، ترجمة المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، بلا تاريخ ودار نشر.

وكانت غايته من القدوم إلى لبنان شراء براد وغسالة أجنبية لعدم توافر أجهزة مماثلة بمواصفات عالية في سورية في ذلك الوقت، نتيجة الإجراءات الاشتراكية القاسية. وطلب مني إرشاده ومرافقته.

سألته: كيف ستنقل قطعاً كبيرة كهذه إلى سورية؟ فأجاب: لدينا هنا في المرفأ مكتب تخليص معدات عسكرية، وما نستورده عن طريق مرفأ بيروت يشرف هذا المكتب على تخليصه وشحنه إلى ســورية. وهو سيتولى نقلها، وقد اتفقت مع الضابط المسؤول على ذلك... ولم أكن جاهلاً بما يقوم به ذلك المكتب، وأنه كان يقوم أيضاً بمهمات استخباراتية...

فانتقلت بالحديث إلى أمور أخرى والأوضاع في ســورية. وبما أنه يعرف اهتمامي بأخبارها، وعشقي للجولان الذي أمضيت فيه ثلاث سنوات من ريعان شــبابي. ويدرك تماماً مدى حفظي للسر، وخطورة إفشــائه لم يجد حرجاً في إعلامي بما أعدُّه سرّاً خطيراً. قال: أبشرك بأننا سنبدأ معركة تحرير الجولان قريباً، فقد جمعنا الرئيس ـ يقصد كبار القادة العكســريين ـ وأعلمنا أن نتهيأ للمعركة فالقرار قد اتخذ، ولم يبق إلا تحديد ســاعة الصفر خلال أيام. لم أسأل عن يوم التحرير بل قلت ممازحاً: هل تريدون تسليم العدو أراضي جديدة؟ قال: لا تمزح. إن الوضع مختلف عما تعرفه في الجيش. فقد وردتنا أســلحة جديدة متطورة، واستعداداتنا كبيرة، وسنربح المعركة.

أجبته: صحيح أنه مضى على إبعادي عن الجيش عشر سنوات، لكنني أتابع دراساتي العسكرية، وأطلع على تقارير أجنبية دقيقة تتحدث في أدق التفاصيل. وهنا في لبنان يسمح مناخ الحرية بالاطلاع على كل ما ترغب بالاطلاع عليه. كما كنت خلال هذه السنوات أعمل بالسياســة، وألتقي بأرفع الشخصيات السياسية والمحللين. فلا تصدق أن الاتحاد السوفييتي الذي يزودكم بالأسلحة المتطورة كما تقول يوافق على إنهاء «إسرائيل».

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إنني أعرف من تبقى من الضباط في الجيش، من المحترفين، وهم الآن في رُتب كبيرة وســيقودون المعارك، وكثير منهم من دورتي، أو مســتجدي، ودربت بعضهم وخدمت مع آخرين، حتى وزير الدفاع مصطفى طلاس فقد دربنا في مدارس المدرعات على الألغام، وكان برتبة ملازم أول، وبعد التخرج التقينا كثيراً وتناقشنا في أمور عدة، ولي صداقات مع كثيرين

من دورته، ورفاقه. وهم أدرى الناس به وكلهم يجمعون أنه دمث الأخلاق، لطيف المعشر، يحفظ الكثير من الشعر، وبخاصة المسفَّ منه، والكثير من الطرائف البذيئة. ويحسن معاشرة النساء؛ ولكنه لا يصلح للقيادة والجندية، وخوض معركة مع دولة قادتها عسكريون محترفون خاض كثير منهم معارك مهمة. والأوسمة الكثيرة على صدر وزيرك لا يعود واحد منها إلى معركة حربية. وأما رئيس الأركان فلا أعرفه ولم يكن مشهوراً بعلمه العسكري، ورئيس شعبة العمليات اللواء عبد الرزاق دردري، فقد خدمت معه، ولا أظنه مؤهلاً لوضع خطط الحرب بالمستوى المطلوب، وتحدثت عن بقية الضباط الذين أعرفهم وأضفت أن معظم الضباط أساتذة مدارس جلبهم البعث ومنحهم رتباً عسكرية... أما السلاح الذي تتحدث عنه، فالذي عند العدو أفضل من سلاحكم، وفوق هذا كله تلعب في الحرب الروح المعنوية وإرادة القتال دوراً مهمّاً في تحقيق النصر. ولا أظن أن هذا متوافر عند كثير منكم. هذا بالإضافة إلى التدريب المتقن والقاسي الذي لا يتوافر في جيش مسيس، لا يقدم فيه الكفء بل الحزبي. فأجابني مفنِّداً كل ما قلت، وأصرَّ على أن السلاح الجديد متفوق على سلاح العدو، وأنهم جاهزون للقتال وسينتصرون. فاضطررت إلى المجابهة بالقول: إذا كانت المعركة بعد أيام، وأنت من الضباط الكبار، وكل همِّك الآن تهريب براد وغسالة. وتريدني أن أقتنع بأنكم ستحاربون وتنتصرون! فقال: أنا لست غبيّاً مثلك (وربما استعمل كلمة أقسى) فها أنت لم تستفد شيئاً عندما سمحت لك الظروف، والآن معاشك مقطوع، وتعيش عيشة الكفاف. وها أنا قد سمحت لي الظروف أن أستفيد، والكل يستفيد. فلماذا لا أكون مثلهم. فلم أجد جواباً سوى مثل سوري: «غداً يذوب الثلج ويظهر المرج».

وهنا أنهيت النقاش عن الحرب، وانتقلت إلى الحديث عن ماركات الأدوات التي جاء من أجلها وأسعارها ورافقته إلى محل صديق اشترى منه ما يريد، ورتب عملية نقله، ثم سافر. وتركني بين مصدق لما قال ومكذِّب، أنتظر ما تأتي به الأيام.

التحضير للمعركة

على الرغم من خسائر العرب الفادحة في حرب حزيران ١٩٦٧م نستطيع أن نقول: إن العدو لم يحقق كل ما كان يحلم به، وبخاصة الاعتراف به وتوقيع معاهدة سلام معه، تجعله أحد دول المنطقة الطبيعية.

وما أن استقرت الأوضاع في كل من مصر وسورية حتى بدأت الدولتان بالاستعداد لحرب تستعيد فيها كلتا الدولتين ما خسرتاه من أراض، وتعيد إلى العرب كرامتهم المكلومة. هذا ما يدَّعونه، وما يفترض أن يكون، ولكن سيتبين لنا لاحقاً اختلاف هدفيهما.

وقد ذكرنا كيف سيطر الأسد على الحكم في سورية، والسادات على الحكم في مصر، ونضيف أنه بعد شعور كل منهما باكتمال سيطرته بدأ يتطلع إلى تقوية جيشه، وإلى حليف له في حرب جديدة لأهداف مختلفة، فلم يجد أي منهما غير الآخر حليفاً مناسباً لخوض الحرب معاً، لأن الحليف الثالث في دولة الاتحاد، أقصد القذافي، كان متشبثاً بخطة غير قابلة للتطبيق[١].. ولا ريب أن كلا الرئيسين بذلا مجهوداً كبيراً في التحضير للحرب. ولا أرغب بالدخول في دقائق التحضيرات والتجارب والتمارين العملية التي قام بها كل جيش، وبخاصة الجيش المصري الذي كان عليه اجتياز حاجز مائي عريض هو قناة السويس، ثم حاجز دفاعي أنشأه العدو على ضفة القناة الشرقية وأطلق عليه اسم «خط بارليف»، وفي ظنه أنه مستحيل عبوره؛ إذ قال عنه دايان «أثناء مناقشة على مستوى القيادة الإسرائيلية، لدراسة احتمال عبور المصريين للقناة: لكي يعبر المصريون قناة السويس، فإنه يلزمهم سلاح المهندسين الأميركي والسوفييتي مجتمعين لمساعدتهم في ذلك»[٢]. وبلغ من غطرسة المغتصبين أن ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي سأل قادة العدو: «أيهما أفضل «لإسرائيل» ويجعلها أكثر قوة... الأراضي التي تحتلها أم التسويات السياسية؟».

فكان جواب موشي دايان وزير الدفاع: «إني لا أرضى إلا بسلام القوة الذي يحقق «لإسرائيل» الحدود الآمنة. وبالطبع لن يستطيع أحدنا أن يحدد مساحة هذه الحدود، لأنها تتغير تلقائيّاً، نظراً لطبيعة نمو وتوسع «إسرائيل»، وإذا كنا نسعى لأن نكون نحن بديل القوى الكبرى في الشرق الأوسط فيجب أن تكون لنا أنيابنا. وهذه الأنياب عسكرية واقتصادية وجغرافية. والناب الأول، أي الناب العسكري، يحقق الأنياب الأخرى»[٣].

---

(١) هذا رأي السادات والشاذلي وطلاس من مذكراتهم.

(٢) الشاذلي نقلًا عن مذكرات الجنرال أليعازر رئيس أركان جيش العدو. م.س. ص٢٩.

(٣) طلاس. م.س. عن مذكرات الجمسي، ص٢٧٠، ٢٧١.

وضع المصريون في البداية خططاً نفذوها تمارين عملية (مناورات) ثم استقر رأيهم على خطة سموها «خطة بدر»[1] تقوم على مبدأ اجتياز القناة، وخط بارليف، ثم التمركز دفاعيّاً على بعد ١٠ ـ ١٥كم شرقي القناة، لأسباب عدم تعريض القوات لهجمات العدو الجوية في أرض منبسطة إن تقدمت أكثر. ومن غير الممكن تغطية هذه القوات بالدفاع الجوي المصري، ولا إمكانية لسلاح الطيران المصري تأمين حمايتها أثناء تقدمها.

ولكن القيادة السورية لم توافق على هذه الخطة، وشعر قادة مصر أن السوريين لن يشاركوا في الحرب إلا إذا كان هدفها تحرير سيناء والوصول إلى المضائق. فقررت قيادة السادات خداع السوريين، ووضع خطة للعرض عليهم لا للتنفيذ، قال عنها الشاذلي في الفصل ذاته: «لقد كنت أشعر بالاشمئزاز من هذا الأسلوب الذي يتعامل به السياسيون المصريون مع إخواننا السوريين، ولكن لم أكن لأستطيع أن أبوح بذلك للسوريين».

«وقد ترددت كثيراً وأنا أكتب مذكراتي هذه، هل أحكي هذه القصة أم لا؟ وبعد صراع عنيف بيني وبين نفسي قررت أن أقولها: كلمة حق لوجه الله والوطن...».

وقد أسهب باتريك سيل في شرح وجهة نظر الأسد على الرغم من عدم إشارته إلى ذلك صراحة، فعنوان الفصل الثالث عشر من كتابه: «السادات: الحليف غير الموثوق»[2].

وقال في الصفحة ٣١٨: «لقد بدأ الغش في مؤتمر السادات/الأسد، في برج العرب، في نيسان/ابريل سنة ١٩٧٣، عندما اتفق الزعيمان على الشكل العام للحملة. فقد عرف السادات أن الأسد لن يقاتل إلى جانبه ما لم يكن الهدف المشترك هو تحرير سيناء والجولان جميعاً، يتبعه توجيه أقصى قدر ممكن من الضغط المتزامن على «إسرائيل» على الجبهتين معاً. هكذا باعه خطة غرانيت٢ [3].

---

(١) للاطلاع على تفصيلات الخطة، ينظر الشاذلي، م.س. الفصل الرابع.

(٢) ينظر سيل، باتريك. الأسد والصراع على الشرق الأوسط م.س.

(٣) اسم الخطة التي وضعتها القيادة المصرية للعرض على القيادة السورية لا للتنفيذ، والتي جعلت الشاذلي يشعر بالإشمئزاز.

وقد أسهب باتريك سيل ـ من بين المصادر التي اطلعت عليها ـ بالإشارة إلى اتصالات السادات بالأميركان، يقول: «وفي وقت مبكر جدّاً يعود إلى كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٠، أي بُعيد استلامه السلطة خلفاً لعبد الناصر، أرسل السادات إلى الأميريكيين سرّاً، يقول لهم: إنه مهتم حقّاً بالسلام.

وفي ٤ شباط / فبراير ١٩٧١ عرض فتح قناة السويس التي ظلت مغلقة منذ ١٩٦٧، في مقابل انسحاب إسرائيلي جزئي مرتبط بجدول زمني لتسوية شاملة.. وفي ١٥ شباط / فبراير أكد لمبعوث الأمم المتحدة «غونار يارنغ» أن مصر مستعدة للسلام مع «إسرائيل» إذا انسحبت هذه من سيناء، وقالت «إسرائيل»: لا.»[١]

ثم ذكر: «... غير أن كيسنغر ردَّ بوضوح كامل، سواء مباشرة، أو بواسطة صهر الملك فيصل، كمال أدهم، مدير المخابرات السعودية، أنه لن يتحرك في عملية السلام ما دام النفوذ السوفييتي قويّاً في مصر»..

وتتابعت الاتصالات... ويبدو أن السادات فهم تصريحاً أو تلميحاً ضرورة تحريك جبهات القتال لتتحرك أميركا باتجاه السلام.

«ولم يدرك ـ الأسد ـ المدى الذي ذهب إليه السادات في اعتبار الحرب شيئاً لا يزيد عن صدمة لإيقاظ عملية السلام من السبات»[٢].

ونذكر هذه المعلومات لأثرها في نتائج الحرب كما سنرى لاحقاً. ومهما كان الأمر فقد بذل الطرفان (سورية ومصر) جهوداً كبيرة في التحضير للحرب. ولم يبخل الاتحاد السوفييتي هذه المرَّة بتزويدهما بأسلحة متطورة، وهكذا «حشدت سورية ستين ألف مقاتل، على نصفين، أحدهما متقدم، والآخر احتياطي. وكان هذا الجيش مسلحاً بألف وثلاثمئة دبابة، وحوالي ستمئة قطعة مدفعية، وأربعمئة مدفع مضاد للطائرات، وأكثر من مئة بطارية صواريخ سام من مختلف النوعيات»[٣].

ومن الجدير ذكره أن بعض صواريخ سام كانت من النوع المتقدم، وشكَّل مفاجأة للعدو على الجبهتين، السورية والمصرية.

---

(١) ينظر سيل، باتريك، م.س. ص٣١٢ وما بعدها.

(٢) ينظر سيل، باتريك، م.س. ص٣١٥

(٣) سيل، باتريك. م.س. ص٣٣٠

أما مصر فقد جهزت جيشاً كبيراً مؤلفاً من مليون ومئتي ألف عسكري من مختلف الرتب، وأكثر من ألف دبابة، ومئات الطائرات والصواريخ المضادة للطائرات. ومضخات ماء لإزالة الحاجز الرملي الذي أنشأه العدو على ضفة القناة الشرقية، وعشرات الجسور لنصبها فوق القناة والعبور عليها(١).

وحددت ساعة الصفر في السادس من شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣م العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ، الساعة الثانية بعد الظهر. وكان هذا التوقيت موفقاً، ومفاجئاً للعدو، وساعد في تحقيق المفاجأة غطرسة العدو، واعتداده بنفسه، واستهتاره بالعرب، فهو بحسب طلاس «ومما يؤكد هذه الحقيقة أن موشي دايان، وزير الدفاع الإسرائيلي كان قد صرح في إحدى زياراته إلى الجولان بتاريخ ٢٧ أيلول ١٩٧٣ بأن سورية حشدت مئات الصواريخ م/د ومئات الدبابات في الجبهة السورية، وأنها أقامت شبكة كثيفة للدفاع الجوي يشابه تلك التي أقامها المصريون على قناة السويس»(٢). وأما باتريك سيل فقد ذكر أن خطط الحرب تسربت إلى العدو الإسرائيلي إذ قال: «ففي أواخر آب/أغسطس أو أوائل أيلول/سبتمبر ١٩٧٣ تلقت مخابرات دولة عربية رسالة بالشيفرة من عميل سوري هو لواء في الجيش السوري، كانت مخابرات تلك الدولة قد جندته للعمل لحسابها قبل ذلك بعامين، يطلب فيها اجتماعاً فوريّاً، وجلب ذلك السوري مجموعة كاملة من خطط حرب تشرين/أكتوبر، كما رسمتها القيادات المصرية السورية العليا، فتمَّ نقل نسخ منها على الفور، وبيد مبعوثين موثوقين إلى شخصين هما: هنري كيسنغر، وموشي دايان»(٣).

ولكن الخطط لم تؤخذ على محمل الجد، وحسبوها للتضليل، أو هكذا أرادها كيسنغر أن تحسب لاستكمال خطة تدور في رأسه.

ولكن مما لاريب فيه أن «السادات كان يرسل رسائل متناقضة تركت المراقبين حيارى مشدوهين»(٤). وهكذا فإن استخفاف العدو بالقيادة السورية، وبإمكانات

---

(١) ينظر الشاذلي، م.س، الفصل الخامس، وبخاصة الصفحة ١٨.

(٢) طلاس. مرآة حياتي، العقد الثالث، م.س. ص٦٠٩.

(٣) سيل، باتريك، م.س. ص٣١٩ و٣٢٠. وأظن أن الرواية من خيال صحافي، ولا أساس لها من الصحة، أو أنني لم أستطع توثيقها.

(٤) المرجع ذاته ص٣٠٦.

الجيش السوري، ونظرته إلى السادات مهرجاً متقلباً لا قرار له، ولا يثبت على موقف، قد ساعد في تحقيق المفاجأة.

والواقع أن السادات كان داهية، وسياسيّاً مخضرماً. وكان همُّه ألا يعرف العدو نواياه، يقول هيكل: «وكان الرئيس السادات مشغولاً بنفس السؤال الذي نام به قبل ساعات: هل عرف العدو؟»[1].

وعلم عند الساعة السادسة صباحاً أن العدو عرف بالهجوم. ولكن تصديق العدو بأن الحرب ستقع جاء متأخراً.

«وفي فجر ذلك اليوم، السادس من أكتوبر ١٩٧٣ كان هؤلاء جميعاً [رئيسة وزراء «إسرائيل» والقادة العسكريون] في حالة صدمة حقيقية، بدأت حينما اتصل الجنرال شاليف في الساعة الثالثة صباحاً بوزير الدفاع ـ الجنرال موشي دايان ـ بواسطة تلفون مؤمن موضوع بجوار سريره، وأيقظه من النوم ليقول له بصوت مثقل ومهموم: الآن تلقينا تأكيداً نهائيّاً بأن هناك هجوماً مصريّاً سوريّاً، على الجبهتين الجنوبية والشمالية واقع ومؤكد في ظرف ساعات. ومصدرنا يقول: إن ساعة الصفر هي آخر ضوء مساء اليوم»[2].

المعركة المفاجئة

سأحاول أن أوجز ما توصلت إليه من متابعتي تلك الحرب، التي حطمت كبرياء قادة العدو، وقضت على أسطورة الجيش الذي لا يقهر، من دون الدخول في تفاصيل تطورات الحرب اليومية ساعة فساعة؛ إذ يمكن لمن يرغب في الاطلاع على دقائق العمليات العسكرية الرجوع إلى المصادر التي ذكرتها في مطلع الحديث عن هذه الحرب.

وإنني إذ أنتقد أحداثاً، أو قرارات، أو قادة. فلا أقصدهم لذاتهم، بل أسعى إلى ذكر الحقائق لكي تستفيد مما حدث الأجيال القادمة، فلا فائدة بعد انتهاء المعارك من الكذب على النفس أو الآخرين. ومع ذلك تبقى الانتقادات والتحليلات والاستنتاجات وجهة نظر شخصية.

---

(١) هيكل، محمد حسنين، م.س. ص ٣٤٠

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢.

أذكر أنني في السادس من تشـرين الأول/أكتوبر، عدت من عملي كالعادة ظهراً. وكعادتي في سـماع الأخبار بعد الغداء، فوجئت بخبر بدء الهجوم على الجبهتين السورية والمصرية مع «إسرائيل». فتذكرت حديث صديقي عن الحرب المنتظرة، ومع ذلك كان الخبر مفاجئاً ومذهلاً.

لم يسـعدني ولم يزعجني، ولكنه أقلقني. ولم أتحمس كما تحمسـت في حرب ١٩٦٧م، إذ تعلمت مما حصل لي ولزملائي نتيجة ذلك الحماس. ومع ذلك رأيت من واجبي إبداء استعدادي لخدمة بلدي في أي مجال أستطيعه، فسطرت برقية للرئيس الأسد هذا نصها:

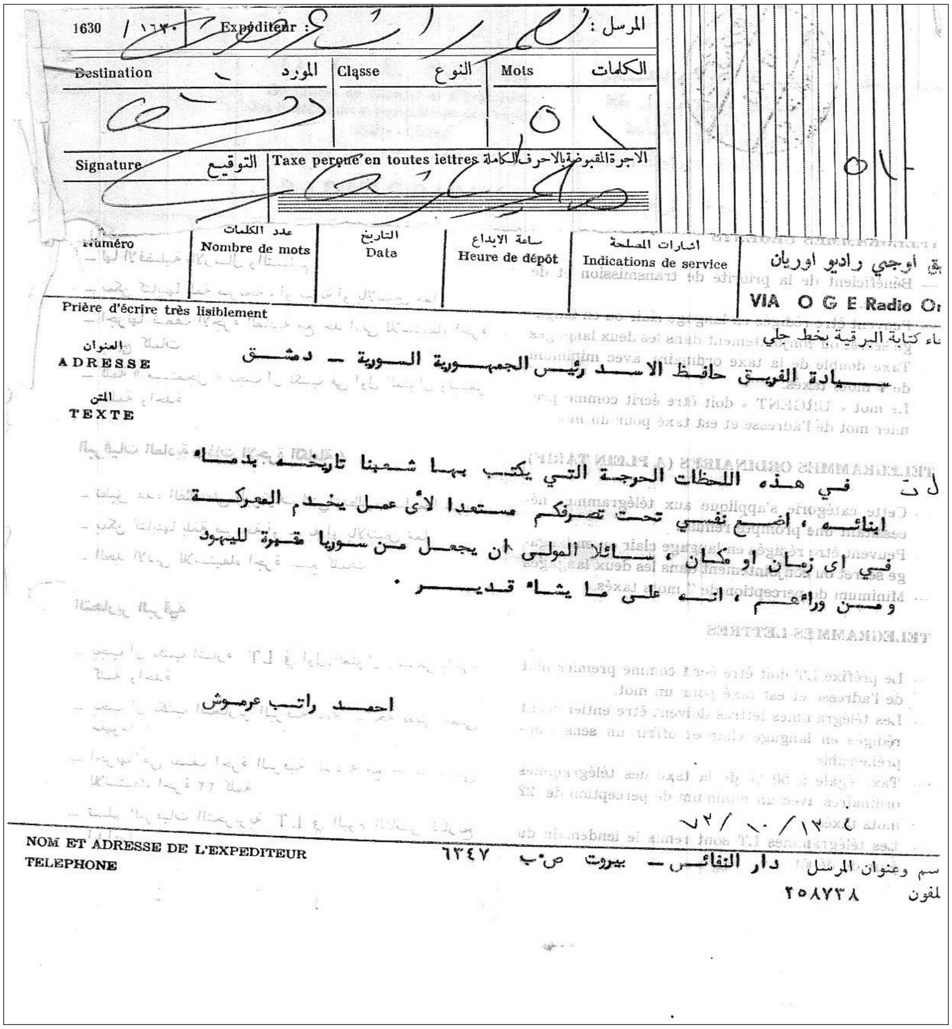

1630 / ١٦٣٠ Expéditeur : المرسل :

Destination المورد | Classe النوع | Mots الكلمات

Signature التوقيع | Taxe perçue en toutes lettres الاجرة المقبوضة بالاحرف الكاملة

Numéro | Nombre de mots عدد الكلمات | Date التاريخ | Heure de dépôt ساعة الايداع | Indications de service اشارات المصلحة | أوجي راديو اوريان VIA O G E Radio Or

Prière d'écrire très lisiblement

ADRESSE العنوان: سـيادة الفريق حافظ الاسد رئيس الجمهورية السورية – دمشق

TEXTE المتن: في هذه اللحظات الحرجة التي يكتب بها شعبنا تاريخه بدماء ابنائه، اضع نفسي تحت تصرفكم مستعدا لأي عمل يخدم المعركة في اي زمان او مكان، سائلا المولى ان يجعل من سوريا مقبرة لليهود ومن وراءهم، انه على ما يشاء قدير.

احمد راتب عرموش

١٤/١٠/٧٣

NOM ET ADRESSE DE L'EXPEDITEUR اسم وعنوان المرسل: دار النفائس – بيروت ص.ب ٦٣٤٧

TELEPHONE تلفون: ٢٥٨٧٣٨

سيادة الفريق حافظ الأسد رئيس الجمهورية السورية ـ دمشق

في هذه اللحظات الحرجة التي يكتب بها شعبنا تاريخه بدماء أبنائه، أضع نفسي تحت تصرفكم مستعدّاً لأي عمل يخدم المعركة في أي زمان أو مكان، سائلاً المولى أن يجعل من سورية مقبرة لليهود ومن وراءهم، إنه على ما يشاء قدير.

أحمد راتب عرموش

وأظنها حفظت في أحد ملفاتي في دوائر القصر، أو أحد فروع المخابرات.. وتسمرت أمام التلفاز أتابع الأخبار مع علمي بأن معظم ما يعرض ويذاع غير صحيح.

وأستطيع تلخيص ما حدث في تلك الحرب من ذاكرتي، ومن ما قرأت في الكتب التي أشرت إليها في مطلع الحديث عن هذه الحرب. ولنبدأ بالجبهة المصرية، ونثنّي بما حدث على الجبهة السورية.

القتال على الجبهة المصرية

يقول الشاذلي في مذكراته عن حرب أكتوبر تحت عنوان معركة العبور: «كان الوقت المحدَّد لعبور الموجة الأولى من المشاة هو الساعة ١٤:٣٠، ولكن كان هناك الكثير من المهام الأخرى التي يجري تنفيذها قبل ذلك. ولعل أهم هذه المهام هو قيام قواتنا الجوية بتوجيه ضربة جوية إلى مطارات العدو ومراكز قيادته، ومناطق حشد المدفعية في سيناء، وقد اشترك في هذه الضربة الجوية أكثر من ٢٠٠ طائرة عبرت خط القناة على ارتفاع منخفض جدّاً في الساعة ١٤,٠٠. وبمجرد عبور قواتنا الجوية لخط القناة بدأت مدفعيتنا عملية القصف التحضيري المكثف على مواقع العدو شرقي القناة. وفي الوقت نفسه تسللت عناصر المهندسين، وعناصر من الصاعقة إلى الشاطئ الشرقي للقناة للتأكد من تمام إغلاق المواسير التي تنقل السائل المشتعل إلى سطح القناة»[1].

وقد تطابق ما ذكره الشاذلي مع ما ذكره السادات في كتابه البحث عن الذات، إذ قال: «وفي الساعة الثانية تماماً، وهي إشارة عبور الطيران وصل الخبر بأن

(١) الشاذلي، م.س. ص٢٥٠ وما بعدها.

طائراتنا قد عبرت قناة السـويس، وكانت ٢٢٢ طائرة نفاثة سـرعتها فوق سرعة الصوت. انتهت من ضربتها الأولى في ثلث سـاعة بالضبـط فقدنا فيها خمس طائرات فقط»[١].

ثم يقول: إنه ترافق ذلك مع انطلاق أكثر من ألفي مدفع تقصف مواقع العدو، ويقول: «كانت الطلعة الأولى للطيران دمرت مراكز القيادة والدفاع الجوي، ومراكز إدارة الطيران. وفقدت «إسرائيل» السيطرة لأربعة أيام. وانطلق الجنود بزوارقهم يصيحون الله أكبر....

وتقدم المشاة بالزوارق، واسـتعملوا سلالم حبال، ثم اشتغلت المضخات، وفتحت الممرات، وتقدمت خمس فرق على خط مواجهة ١٨٠كلم[٢].

ويقول الشاذلي: في الساعة ١٨:٣٠ من يوم ٦ اكتوبر كان قد عبر إلى الشاطئ الآخر ٢٠٠٠ ضابط و ٣٠,٠٠٠ جندي من خمس فرق مشـاة، واحتفظوا بخمسـة رؤوس كباري، قاعـدة كل منها تتراوح بين ٦ و ٨ كيلومتـرات وعمق كل منها يتراوح بين ٣ و ٥ كيلومترات... وعبرت ٢٠ دبابة برمائية و ٨٠ مركبة برمائية.

ويلخص ما أمكن تحقيقه من سـاعة بدء الهجوم في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت ١٩٧٣/١٠/٠٦ ولغاية صباح يوم ١٠/٧ الساعة الثانية، فيقول:

«كانت قواتنا قد حققت نجاحاً حاسماً في معركة القناة، فقد عبرت أصعب مانع مائي في العالم، وحطمت خط بارليف في ١٨ سـاعة... وقد تمَّ ذلك بأقل خسائر ممكنة، فقد بلغت خسائرنا ٥ طائرات و ٢٠ دبابة، و ٢٨٠ شهيداً...

أما العدو ففقد ٣٠ طائرة و ٣٠٠ دبابة، وعدة آلاف من القتلى، وخسر معهم خط بارليف بكامله. لقد تمَّ سحق ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة كانت تدافع عن القناة»[٣].

وأسـتطيع كأي مراقب أن أسـجل للتاريخ بأن معركة العبور كانت ناجحة لدرجة لا يمكن تصورها حتى في تمرين عملي (مناورة) لا عدو حقيقيّاً فيه.

---

(١) السادات، م.س. ص٣٢٤ وما بعدها. ومن الجدير ذكره أن السادات فقد أخاه الطيار في أولى الطلعات.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٥.

(٣) الشاذلي، م.س. ص٢٥٨.

والفضل يعود ـ بعد توفيق الله ﷻ ـ إلى التحضير الجيد، مع التدريب العالي، والروح المعنوية المرتفعة، وتطابق الرؤية بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية التي ما لبثت أن اختلت، فأدى ذلك إلى عدم جني ثمار النصر المبين.

وقد أصبح للجيش المصري في ١٩٧٣/١٠/٠٧ في شـرقي القناة خمس فرق مشاة بكامل أسـلحتها الثقيلة، وحوالي ألف دبابة. وهكذا فقد العدو السيطرة، وتكبد خسائر فادحة. ولكنه بعد أن استعاد الوعي من هول الضربة التي أفقدته توازنه، وكما يقضي العلم العسكري، بدأ يعدُّ لهجوم معاكس، ويحشد ما يستطيع من قوات. وكانت دباباته تتمتع بشكل عام بميزات تفوق الدبابات المصرية، مع فارق أيضاً في التدريب والمناورة.

ويعترف الشاذلي كأي قائد محترم بمكمن الخطأ فيقول: «وخلاصة القول: فقد كان العدو يسـتخدم دباباته الاسـتخدام الصحيح، أي أنه كان يسـتخدمها كدبابات. أما نحن فقد كنا نسـتخدمها كمدافع مضادة للدبابات، ذاتية الحركة، أكثر من استخدامها كدبابات»[1].

وقد فشلت هجمات العدو المعاكسة. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن الشاذلي كان يعارض التقدم إلـى المضائق لأسـباب كثيرة، منها تفوُّق طيـران العدو، والحرص على عدم تعريض القوات المصرية لهجمات جوية في أرض مكشوفة، وعدم توافر دفاع جوي لدى القـوات المصرية قادر على حمايتها، بينما هي في منطقة القناة مغطاة بشبكة دفاع جوي متطورة.

ولكن لو أن الجيش المصري اسـتغلَّ اضطراب العـدو وتخلخل صفوفه، وتدمير دفاعاته، وتابع هجومه إلى المضائـق فربما كان نجح في ذلك. وكانت العقبة الرئيسة التي سيواجهها طول خطوط الإمداد. ولكن ذلك لم يحصل.

وعلى الرغم من خسائر العدو التي قدرها باتريك سيل لغاية صباح السابع من تشرين الأول بثلاثمئة دبابة، وفي الهجوم المعاكس ٢٦٠ دبابة أخرى[2]، بدأ يحشد ما يستطيع من قوات وبدأت الولايات المتحدة بعملية إنقاذ ودعم سريع، فأخذت تزوِّده بكل ما يحتاجه من عتاد وذخيرة، وبسرعة مذهلة مستعملة مطار

(١) الشاذلي، م.س. ص ٢٦٣.

(٢) سيل، باتريك، م.س. ص ٣٢٩.

العريش، حتى وصل بها الأمر إلى نقل دبابات بالطائرات جاهزة للزج بالمعركة فور نزولها من الطائرة...

وفي هذا الجو، بعد أسبوع من بدء القتال، تمكنت فيه القوات المعادية من استعادة السيطرة، قررت القيادة السياسية المصرية التقدم باتجاه المضائق، ولم تلق اعتراضات القيادة العسكرية التي جنَّ جنونها أذناً صاغية...

وقد أشار الشاذلي إلى هذا في مذكراته فقال: «لقد كان هذا القرار أول غلطة كبيرة ترتكبها القيادة المصرية خلال الحرب، وقد جرتنا هذه الغلطة إلى سلسلة أخرى من الأخطاء...»[١] ثم يضيف: «كان علينا يوم ١٤ أكتوبر أن نهاجم ٩٠٠ دبابة معادية في المكان الذي يختاره العدو لهذا اللقاء، وتحت سيطرة جوية معادية، بقوة ٤٠٠ دبابة مصرية فقط. هل كان هذا القـرار نتيجة الجهل، أم المغامرة، أم الخيانة؟ ما زال هناك كثير من الغموض يحيط بهذا الموضوع».

ولاريب أن موضوع الخيانة غير وارد وأظنها وجهة نظر خاطئة.

وقد استدعى تقدم القوات المصرية باتجاه المضائق، نقل قوات إضافية كانت تحمي مؤخرة الجيشين الثاني والثالث، من الضفة الغربية إلى الشرقية، في وقت كان قمر صناعي أميركي يصور وضع القـوات، وتوزعها على الأرض، وينقلها مباشرة إلى قيادة العدو.

لم تتابع مصر هجومها بعد العبور، واتخذت مواقع دفاعية، ما مكَّن قوات العدو، عندمـا لاحظت ذلك، التفرغ للجبهة السـورية، ومكنهـا ذلك التوقف المصري لمدة أسبوع من استعادة ما خسرته على الجبهة السورية عند بدء هجوم الجيش السوري. وكبّدت القوات السورية خسائر فادحة اضطرتها إلى اتخاذ مواقع دفاعية كما سنرى عند الحديث عن الجبهة السورية، وقد مكَّنها ذلك من التفرغ للعمليات في الجبهة الجنوبية (المصرية). وقد نفذت القوات المصرية الهجوم على مضض، ولنترك للشاذلي وصف المعركة ونتائجها:

«لقد نجح العدو في استدراج ألويتنا المهاجمة إلى مناطق قتال اختارها بعناية[٢]. ونجح في تدمير معظم دباباتنا. لقد فقدنا في هذا اليوم الأسود ٢٥٠

---

(١) الشاذلي، م.س. ص ٢٧٣.

(٢) من أوائل الدروس التي يتعلمها الضابط في الكلية العسكرية، أن القائد الناجح هو الذي يستطيع أن يفرض على العدو مكان وزمان المعركة الذي يلائمه، ويحسن فيه استخدام أسلحته.

دبابة، وهو رقم يزيد عن مجموع خسائرنا في الأيام الثمانية الأولى للحرب. وحوالي ظهر يوم ١٤ انسحبت قواتنا مرَّة أخرى إلى داخل رؤوس الكباري شرق القناة»[١].

ونتيجة لما تكبدته القوات المصرية من خسائر، ولجوئها إلى مواقعها الدفاعية. وبما أن القمر الصناعي الأميركي الذي يراقب المنطقة أعلم القيادة الإسرائيلية، والتي انتعشت بعد انهيار، بضعف الدفاع عن الضفة الغربية في منطقة الدفرسوار، فقد اتخذت قراراً بفتح ثغرة في تلك المنطقة وأخذ المبادرة، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم. ويشاع أن الولايات المتحدة نصحت بذلك، ولا أظن أن العسكريين الإسرائيليين أقل حنكة وخبرة من الأميركيين.

ومهما كان الأمر، فقد عبرت قوات إسرائيلية ليلة ١٦/١٥ في منطقة الدفرسوار إلى الضفة الغربية للقناة.

وفي الوقت الذي كنا نرقص فيه فرحاً، سمعنا في الأخبار أن سبع دبابات معادية عبرت القناة، واختفت بين الأشجار، وأن القوات الشعبية تتعامل معها.

وعلى الرغم من إذاعة الخبر بشكل لا يوحي بأي خطر. فقد أصبت بالذهول، وأخذ يدور في ذهني تساؤلات لا تجد جواباً مقنعاً. كيف لهذه الدبابات أن تعبر القناة والقوات المصرية على الضفة الشرقية؟ وهل هي برمائية تسللت ليلاً تحت جنح الظلام في الماء أم استطاع العدو نصب جسر لعبورها؟ وكيف يستطيع إقامة جسر من دون انتباه القوات المصرية؟ وأين احتياط القوات المصرية ليتحرك فوراً للقضاء عليها؟...

ولم أستطع استيعاب الموضوع، ولنترك للسادات والشاذلي يصفان ما حصل باختصار. يقول الشاذلي تحت عنوان «اختراق العدو ليلة ١٦/١٥ من أكتوبر: وصلتنا المعلومات الأولى عن اختراق العدو صباح يوم ١٦ أكتوبر... كان البلاغ يقول: لقد نجحت جماعات صغيرة من العدو في العبور إلى الضفة الغربية، ويقوم الجيش باتخاذ الإجراءات اللازمة للقضاء عليها... كانت دبابات العدو تظهر فجأة بقوة ٧ ـ ١٠ دبابات بالقرب من أحد مواقع تلك الكتائب [كتائب دفاع جوي]، ثم تشتبك مع الموقع من مسافة ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠م فقط، وتقوم بتدميره أو إسكاته ثم

(١) الشاذلي، م.س. ص ٢٧٤.

تنسحب فجأة لتظهر في مكان آخر... عقد مؤتمر في القيادة بعد ظهر يوم ١٦ لبحث الموقف، واتفقت مع الوزير على أن نقوم بتوجيه ضربة قوية ضد العدو في منطقة الاختراق صباح يوم ١٧، ولكننا اختلفنا مرة أخرى على طريقة توجيه الضربة...»[١].

ويتابع الشاذلي شرح خطته وطريقة حشد القوات، ويشرح خطة الوزير أيضاً التي هي خطة رئيس الجمهورية مما لا يهم القارئ. والمهم هو تضارب الآراء على أعلى مستوى في القيادة المصرية، في حين استطاع العدو أن يحشد ٨ ألوية مدرعة ولواء مشاة في المنطقة...

أما السادات فيقول: «أرسلوا ٤٠٠ دبابة داخل الثغرة في رقعة أرض لا تحتمل أكثر من ٢٠٠ دبابة، وهي محاصرة»[٢] وما يمكن استنتاجه أن كلام السادات سياسي إنشائي لا يعبِّر عن الواقع الذي اختصره الشاذلي «... ولم يفهم رئيس الجمهورية، ووزير الحربية أهمية المناورة بالقوات إلا بعد ظهر يوم ١٨ من أكتوبر، وبعد أن أصبحت قواتنا مهددة بالتطويق، وبعد أن دمَّر العدو الكثير من مواقع صواريخنا سام. وبعد أن أصبحت القوات الجوية المعادية قادرة على العمل بحرية»[٣] وتجنباً للإطالة نشير إلى أن الشاذلي كان يفكِّر عسكريّاً والسادات يفكر سياسيّاً، وفي رأسه قرار أو خطَّة لم يعلنها لأحد أساسها الوصول إلى السلام. وهو لا يخفي ذلك في مذكراته ويكرر القول إنه رجل سلام.

وبعد ذلك تحولت القوات المصرية على الضفة الشرقية إلى ترسيخ مواقعها الدفاعية بدل الهجوم، بينما تابعت القوات المعادية العمل على زيادة حشدها على الضفة الغربية، ومحاولة السيطرة على مدينة الإسماعيلية، وكذلك محاصرة القوات المصرية على الضفة الشرقية. وكانت تتلقى مساعدات أميركية سخيَّة بإشراف شخصي من كيسنغر، الذي اختصر باتريك سيل موقفه فقال: «ولقد ظلَّ كيسنغر واعياً دوماً لجذوره كلاجئ يهودي من ألمانيا النازية، التي مات بعض أفراد عائلته في معسكرات اعتقالها»[٤].

---

(١) الشاذلي، م.س. ص٢٧٩ وما بعدها. ويلفت قوله اختلفنا مرة أخرى، أي إن الاختلاف في وجهات النظر بين الوزير وقائد الجيش كان يحصل في كثير من الأحيان.

(٢) السادات، م.س. ص٣٥٤. ويلاحظ أن الكلام إنشائي يصلح لعامة الناس.

(٣) الشاذلي، م.س. ص٢٨٥.

(٤) سيل باتريك، م.س. ص٣٤٩.

عمد السادات إلى دراسة الموقف بدقَّة كما يقول: «وأنا أعرف إمكانياتي وأعرف حدودي...».

«فأميركا و«إسرائيل» في مواجهتي، والاتحاد السوفييتي في يده الخنجر، ويقبع وراء ظهري ليطعنني في أية لحظة عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحي كما حدث سنة ١٩٦٧»[1].

فأقال الشاذلي المشاكس الذي لم يكن طيّعاً كوزير الدفاع، الفريق حافظ إسماعيل، والذي لم يكن على وفاق مع الشاذلي. وقرَّر قبول وقف إطلاق النار الذي جاء بناء على تشاور بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة والسادات، على أن يكون على الخطوط التي وصلت إليها قوات الطرفين. وأبرق بذلك إلى الأسد، كما أشار في مذكراته، وذكر باتريك سيل البرقية فقال: أبرق السادات للأسد يائساً في ١٩٧٣/١٠/١٩ «لقد قاتلنا «إسرائيل» حتى الخامس عشر، وفي الأيام الأربعة الأولى كانت «إسرائيل» وحدها... ولكن خلال الأيام العشرة الأخيرة كنت على الجبهة المصرية أقاتل الولايات المتحدة كذلك، من خلال الأسلحة التي ترسلها.

وبصراحة لا أستطيع أن أحارب أميركا، ولا أن أقبل المسؤولية أمام التاريخ عن تدمير قواتنا المسلحة للمرة الثانية»[2].

وكان السادات مستعدّاً لوقف إطلاق النار، ولكن كيسنغر لم يكن كذلك، وماطل حتى هدده السوفييت بالتصرف منفردين.

وهكذا صدر قرار وقف إطلاق النار في ١٩٧٣/١٠/٢٢ الساعة السابعة مساء. وقبلت مصر القرار، ورفضته سورية، واستثمرته «إسرائيل» كعادتها لتحقيق بعض المكاسب. وننتقل إلى الحديث عن الجبهة السورية.

القتال على الجبهة السورية

الحديث على جبهة الجولان عندي ذو شجون، فقد أمضيت في تلك المنطقة ثلاث سنوات من زهرة شبابي، ولي فيها ذكريات لا يمحوها الزمان...

---

(١) السادات، م.س. ص ٣٤٨.

(٢) سيل، م.س. ص ٣٥٥. ويقصد بالمرة الأولى سنة ١٩٦٧.

ولمن لا يعرف الجولان، هو هضبة تقع جنوبي سورية، وتميل نحو الغرب لتتداخل مع الأراضي اللبنانية، بينما تشرف على الأراضي المحتلة في فلسطين بمنحدر قائم في معظم الحدود، ويفصل نهر اليرموك بينها وبين الأردن بشكل منحدر أيضـاً. وفيها عدد مـن الجبال الصغيـرة والتلال المبعثـرة، أهمها تل أبو الندى.

مساحتها حوالي ١٧٠٠كم٢، وأرضها وعرة، ولكن المساحات القليلة المنبسطة فيها خصبة جدّاً، وأمطارها غزيرة بالنسبة إلى معظم مناطق سورية، وبخاصة في القنيطرة، حيث تهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر أحياناً في الشتاء، وتغطيها الثلوج بضعة أيام كل عام.

وهي تشـكل خزان مياه جوفية لفلسـطين. وللعدو اهتمام خاص بها لهذا السـبب، ولموقعها الجغرافي الاستراتيجي وسـيطرتها من علٍ على الأراضي المحتلة.

وكانت القيادة السـورية منذ ما قبـل حرب ١٩٦٧ تقسـم الجبهة إلى ثلاثة قطاعات: شمالي وجنوبي وأوسط، ومركز قيادتها في مدينة القنيطرة. وقد احتلها العدو في غفلة من الزمن سنة ١٩٦٧ في الحرب المشؤومة التي تحدثنا عنها في الكتاب الثاني من رحلة العمر.

وأصبح نتيجة احتلالها على مقربة من العاصمة السورية دمشق. وأنشأ فيها خطّاً دفاعيّاً قويّاً وصفه باتريك سـيل فقال: «كانت «إسرائيل» قد حفرت خندقاً مضادّاً للدبابات عمقه أربعة أمتار، وعرضه يتراوح بين أربعة وستة أمتار، محاطاً بدشم ترابية مرتفعة، ومحميّاً بحقول ألغام من جميع الجوانب، يراقب باستمرار من مرصد في جبل الشـيخ... وخلفه ١١٢ دشـمة محصنة، ووراء ذلك دبابات وبطاريات مدفعية...»[1].

أما طلاس فوصف الخط الدفاعي ذاته، كما يأتي: أقـام العدو خطّاً دفاعيّاً واحداً عمقه ٣,٢ كم، على طول خط وقف إطلاق النار مكوناً من نقاط اسـتناد حصينة في المناطق المشرفة، وتحقق التعاون فيما بينها بالنظر والنار، وعددها ٥٢ نقطة تحوي ١١٢ منعة اسـمنتية، وفيها ملاجئ وخنادق محمية، ووسائل اتصال

(١) سيل، باتريك، م.س. ص٣٢٩.

مختلفة. وحفر في المناطق الصالحــة لعبور الآليات خنادق بعرض ٤,٥م وعمق ٣,٢م مضادة للدبابات، وأقام سواتر ترابية من جانب العدو يصل ارتفاعها حتى ٥م. وأقام في بعض المناطق حواجز من الأسلاك الشائكة[١].

أي باختصار كان على القوات السورية أن تقتحم خطّاً دفاعيّاً قويّاً، وتواجه عدوّاً مدرَّباً مزوَّداً بأحدث الأسلحة، ويعدُّ خسارته الجولان قضية حياة أو موت بالنســبة إليه، وكان الســوريون علــى دراية تامة بقــوة خط الدفــاع المذكور، وبالاحتياط الــذي يحتفظ به العــدو وراء ذلك الخط للتعامــل مع أي طارئ، وبالتفوق الجوي لقواته... فحاولوا الاستعداد للمعركة بقدر ما يستطيعون.

فحشدوا بحســب باتريك سيل «جيشــاً ـ يقصد قوات ـ قوامه سبعون ألفاً، مسلحاً بـ ١٣٠٠ دبابة...»[٢].

ويصف طلاس بدء الهجوم كالآتي:

«في الساعة ١٤:٠٠ كان ما يقرب تسعمئة مدفع، ومدفع هاون، تصب نيرانها على الموضع الأول المعادي. وعلى جميع الأهــداف الموجودة في الجولان، والتي لم يخصص لها جهد جوي، كما كان أكثر من ثمانين طائرة مقاتلة وقاذفة مقاتلة تجتاز خط وقف النار، والحدود الدولية اللبنانية لتسقط قنابلها على مراكز توجيه الطائرات»[٣].

«.. كانت نتائج الضربة الجوية الأولى والتمهيد المدفعي مؤثرة جدّاً. وما أن انتقلت نيران المدفعية إلى عمق الدفاعات المعادية حتى بدأت مجموعات اقتحام فرق النسق الأول تقدُّمها للهجوم»[٤].

ويتابع طلاس وصفه معارك اليــوم الأول من الحرب، ويذكر كيف تأخرت بعض القوات عن الأوقات المحددة لها وفق الخطة المرسومة للهجوم، وكيف واجهت قوات أخرى مقاومة عنيفة وتكبَّدت خســائر فادحــة، كما أوقعت في صفوف العدو خسائر أكبر...

---

(١) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٦٩٨ ـ ٧٠٠.

(٢) سيل، باتريك، م.س. ص ٣٣٠.

(٣) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٧٠٣.

(٤) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٧٠٣.

وربما كان وليد حمدون قائـد اللواء ٥١ مدرعـات المميَّز أكثر دقة في وصف المعارك، وما واجهه، لأنه كان على رأس لوائه على الأرض، يواجه العدو، فهو يقول:

«وفي الموعـد المحـدد تقدمنا، ووصلنا إلـى خطوط زجنـا، ولكن كما توقعنا.. (!) لم تؤمن لنا ألوية المشاة الأمامية أماكن للعبور، لذلك نفذنا حسب ما خططناه نحن»[1] ثم يقول: «لقد أنهك اللواء في تنفيذ هذه المهمة فلم يبق بين أيدينا من دبابات إلا ٢١ دبابة فقط. لذلك طلب منا التمسك بخط غرب الخشنية (قرية). وطلب مني الانتظار، ومسـاعدة اللواء/٤٣/ دبابات والذي يقوده الرفيق الغالي عدنان بدر الحسن. وبالفعل انتظرته حتى قابلته على خط العبور، وكان قد فقد كتيبة من كتائبه، على الخط الأمامي، وهنا اسـتلم أغرب مهمة، إذ عليه توزيع اللواء في اتجاهين، على كل اتجاه كتيبـة معززة. الأولى باتجاه القنيطرة والثانية باتجاه الدبورة. وقد حاولت، وكذلك حاول معي بأن يكون اتجاه تقدمه هو اتجاه تقدم لوائي، أي نزحف معاً باتجاه الدبورة، وباتجاه جسر بنات يعقوب. ولكن مع الأسف لم يسـمع لنا رأي، وتمسكت شعبة العمليات برأيها الخاطئ والبعيد عن كل فكر عسكري..

طبعاً دمِّرت كتيبتا اللـواء /٤٣/ وبقي قائد اللواء المقدم عدنان ودبابته فقط معي على الخط غربي الخشنية بانتظار تعليمات أخرى»[2].

ويتابع حمدون وصفه الذي يدمي القلب، ويفتـت الكبد حزناً على أبطال قضوا بدباباتهم في سبيل تحرير بلادهم، فيقول: «وصلت إلى دبابة الرفيق عدنان بدر الحسن، فأصرَّ سائقه على تناول الشـاي المعدِّ من قبله. جلست وإياه على ظهر الدبابة وأخذنا نقيِّم الوضع. لقد أعلموني بأن نؤمن خط زج الفرقة الأولى... كان العدو قد انسحب من خط دفاعه الثاني. وهو حتماً يستند إلى رؤوس الوديان المنحدرة باتجاه نهر الأردن (الشريعة) أو بحيرة طبرية.

وبالفعل تلاقت قوات الفرقة الأولى مع هذا العدو الذي استند في المواقع المهيأة سابقاً، ومستخدماً الصواريخ المضادة للدبابات والحديثة من نوع «تاو»

---

(١) حمدون، وليد، ذكريات وآراء، بلا ناشر، ط١، دمشق ٢٠٠٧م، ص١٣٧.

(٢) حمدون، وليد، م.س. ص١٣٨.

الواصلة مباشرة من الولايات المتحدة الأميركية. لقد كانت هذه الصواريخ مفاجئة لنا مثلما كانت الصواريخ المضادة للطائرات مفاجئة لطيران العدو..

لا أعرف ماذا جرى مع الفرقة الأولى، لم أحاول مسبقاً، ولا أريد أن أكتب ما سمعته بعد ذلك. وإنما أقول: إن وحداتها تعثرت في الهجوم، ولم تنجح. وعاد قسم كبير منها خلف قواتي، في الخشنية...»[1]

وأنا لا أريد أيضاً أن أسجل ما سمعته. لقد كان قائد الفرقة المذكورة والمميزة مدرعات، من دورتي، وكذلك رئيس أركانه. وقد كان وصف وليد حمدون للمعارك ـ كما أظن ـ دقيقاً، وإن كان فيه تبجح لا أرغب بوصفه، ولا أدري أكان تصرفه شجاعة أم استهتاراً بالعلوم العسكرية، ومهما كان الأمر فهو يصدر عن قلب مجروح... فبعد أن أشار إلى انسحاب فلول بقيَّة الوحدات بعد يومين يقول: «ولذلك وجدت نفسي ومعي عدنان بدر الحسن في تل العرايس، ومعنا فقط عشر دبابات. هذا كل ما تبقى من لوائي، بما فيهم دبابتي ودبابة الرفيق عدنان. لقد جلسنا في تلك الأمسية التي لن ننساها مطلقاً، وطيلة عمرنا، ونحن نشاهد أرض المعركة، لقد كان فيها أكثر من /٦٠/ شعلة كلها دبابات محترقة وتتفجر. وهي من دباباتنا، أو من دبابات العدو. لقد كانت معركة رهيبة... فتحنا كل ما لدينا من علب الأطعمة المحفوظة. وجلسنا نحن الضباط المتبقين حولها كدائرة، نأكل ونضحك، وننكت بعضنا على بعض، وكأن ما حولنا لا يهمنا»[2].

وفي صباح ١٠/١٠ لم نجد أحداً حولنا فقد كنا وحدنا في الجولان»[3].

نكتفي بهذا القدر من الاقتباس مما أورده حمدون في مذكراته، ونعود إلى اليوم الأول من الحرب، فقد حققت بعض الوحدات تقدماً ملحوظاً، وتعثرت أخرى. وترافق الهجوم على خطوط العدو وتحطيمها مع إنزال جوي لعناصر خاصة على مرصد جبل الشيخ واقتحامه بالاشتراك مع وحدات مغربية وأخرى من جيش التحرير الفلسطيني، في عملية نوعية حققت هدفها بالسيطرة على المرصد على الرغم من مقاومة العدو العنيفة.

---

(١) حمدون، وليد، م.س. ص١٤٠.

(٢) حمدون، وليد، م.س. ص١٤٢.

(٣) حمدون، وليد، م.س. ص١٤٣.

وحاولت قيادة العمليات السورية استثمار الفوز الذي حققته في ١٠/٦ وزجت بالفرقة الأولى مدرعات، ولكنها تعثرت كما ذكر طلاس[١]. وكما سبق وذكرنا عن حمدون. كما تعثرت بعض القوات في القطاعين الشمالي والجنوبي.

وذكر باتريك سيل أنه تقرر قيام الفرقة السابعة بهجوم ليلي (ليلة٩/٨ تشرين١) لتجنب طائرات العدو «لأن اختراقاً سوريّاً حاسماً للخطوط الإسرائيلية المنهكة كان يمكن أن يرجح كفة سورية في المعركة، ولكن القائد القدير العميد الركن عمر الأبرش خريج كلية الأركان الأميركية من (فورت لافنوورث)، استشهد عندما أصيبت دبابته القيادية. نتيجة لذلك تأجل الهجوم إلى صباح ١٠/٩، ورغم أنه أحرز تقدماً. عندئذ فإنه توقف نتيجة تدخل الطيران الإسرائيلي بكثافة. وهكذا تجنبت «إسرائيل» كارثة أخرى»[٢].

هذه رواية باتريك سيل عن استشهاد قائد الفرقة، اعتمدتها بعيداً عن الشائعات التي راجت عن مقتله، لأنني لا أملك ما يؤيد أيّاً من تلك الشائعات. ومنها أنه رفض الانسحاب فأرسل الأسد من اغتاله.

المهم أن العدو اســتعاد وعيه بعد الضربة المفاجئة التــي هزت كيانه، واستعاد بعض الخســائر الجســيمة التي تكبدها. ومنذ صباح ١٠/٨ ظهرت الطائرات المعادية في الأفق وبدأت تنقض على القوات الســورية المدرعة، واشتدت رمايات المدفعية والقواعد الصاروخية، وشرع العدو يقذف من دون انقطاع بقوى جديدة[٣].

وكان العدو قد اطمأن لعدم تقدم القوات المصريــة في الجنوب واتخاذها مواقع دفاعية على ضفة القناة الشرقية فركز جهده على الجبهة الشمالية. ومع ذلك صمدت القوات السورية، وأبدى العساكر شجاعة وثباتاً منقطع النظير. ولكن شدَّة نيران العدو، وتفوقه الجوي مكنه يــوم ١٠/١١ من اختراق خط وقف إطلاق النار في بعض المواقع وتعثر في أخرى[٤].

(١) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٧٢١.

(٢) سيل، باتريك، م.س. ص ٣٣٨.

(٣) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٧٣٤.

(٤) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٧٥٥ ـ ٧٦٠.

وعندما كانت قوات العدو تحاول تقدمها على محور القنيطرة ـ سعسع ـ دمشق، شنت قوات صلاح الدين العراقية هجوماً معاكساً، واصطدمت بقوات العدو، وتمكنت من دحره ومطاردة فلوله[1].

وانتهى زخم الهجوم المعاكس الإسرائيلي على الجبهة السورية ابتداء من صباح ١٩٧٣/١٠/١٥، وشارك في إيقافه القوات العراقية والأردنية التي هبت لمساعدة القوات السورية وشاركت ببسالة في القتال.

وباختصار شديد كانت نهاية المعارك استعادة العدو الأراضي السورية التي كان احتلها سنة ١٩٦٧، والاستيلاء على بعض الأراضي الجديدة في بعض المناطق متجاوزاً خط وقف إطلاق النار، وأصبحت دمشق في مرمى مدفعيته.

ولما قبلت مصر بقرار وقف إطلاق النار في ١٩٧٣/١٠/٢٢ رفضت سورية القرار، فاستغلت قوات العدو الفرصة، وتذرعت بالرفض السوري فهاجمت بقوات كبيرة جوّاً وبرّاً مرصد جبل الشيخ واستعادته ليلة ٢٣/٢٢ تشرين.[2]

وفي ١٠/٢٣ قبلت سورية قرار وقف إطلاق النار، الذي ضغطت روسيا حتى حصلت عليه بالاتفاق مع كيسنغر الذي فرض استراتيجية على الجميع.[3]

وتبين أنه وصل إلى العدو في أثناء الحرب ٣٣ ألف طن أسلحة ومعدات من الولايات المتحدة، إذ «لم يدرك العرب مدى التنسيق والدعم الأميركي لـ«إسرائيل»[4] علماً بأن الاتحاد السوفييتي كان يمد أيضاً سورية ومصر بالأسلحة والذخائر، ولكن بنسبة أقل بكثير من إمدادات الولايات المتحدة للعدو.

ويظهر من متابعة الأحداث حرص الاتحاد السوفييتي الشديد على التنسيق مع الولايات المتحدة، وضغطه لوقف إطلاق النار لعدم تورطه في مواجهة معها، لأنها مستعدة للدخول في حرب عالمية لحماية الكيان الصهيوني، الذي لا يرغب الاتحاد السوفييتي أيضاً بزواله. ولكنه يعمل لحفظ نفوذه لدى بعض الدول العربية.

---

(١) طلاس، مصطفى، م.س. ص ٧٥٧.

(٢) سيل، باتريك، م.س. ص ٣٥٩. وينظر طلاس أيضاً.

(٣) سيل، باتريك، م.س. ص ٣٥١.

(٤) سيل، باتريك، م.س. ص ٣٥١.

تحليل الحرب ونتائجها

ما سأذكره لا يعدو آراء مراقب يحمل هموم أمته ويسعى لخيرها، ولا يدعي المقدرة على تحليل حرب بهذه الأهمية، واستنتاج الدروس المستفادة منها؛ وهو يرى أن دراسة الأحداث التاريخية والمعارك الحربية، دراسة علمية واقعية، والاعتبار بها، خير من التعمية على الأخطـاء وإخفائها، وقلب الهزائـم إلى انتصارات... فالحرب النفسية أثناء القتال غير الدراسة العلمية لنتائج أي حرب أو معركة.

وكم كنت أتمنى لو أنه شكلت بعد الحرب لجنة من كبار الضباط الأكفاء من المشاركين في الحرب ومن المراقبين، ولو متقاعدين، مصريين وسوريين، والتحق بها علماء في السياسـة والاجتماع والاقتصاد، وترك لها حرية تحليل ما حدث وتقويمه، والخروج بتوصيات للمستقبل، وهذا ما يفعله العدو عادة. وأظن أن هذا لم يحصل في كل حروبنا، أو لم يتيسـر لي الاطلاع على تلك الدراسـات إن وجدت. وكل ما اطلعت عليه تقارير ومؤلفات فردية.

وقبل الحديث عن الحرب ونتائجها، أرى من الضروري والمفيد ذكر حقائق لا يصح الجهل بها:

١ ـ الكيان الصهيوني أنشئ بقرار دولي، برعاية دول فاعلة قادرة على حمايته، ولم يكن باعتراف بدولة قائمة، أو باسـتقلال دولة مسـتعمرة، ولم يكن شعب الكيان المذكور موجوداً على الأرض التي أنشئ عليها الكيان.

٢ ـ إن حجم الأراضي التي منحها القرار الدولي لذلك الكيان لا يمكِّنه من إقامة دولة قادرة على الاسـتمرار في الوجود، وهذا ما يجعل حلمه الذي يسعى إليه توسيع حدوده لضمان أمنه، وزيادة موارده، وتأمين المياه الكافية له.

٣ ـ يعمد هذا الكيان لضمان استمراره على المساعدات الخارجية من جهة، وعلى العمل لإضعاف القوى المحيطة به، والتي تشكل تهديداً لوجوده من جهة أخرى، معتمداً على بذر أسباب التفرقة بينها، وإذكاء نار الفتنة في صفوفها.

٤ ـ إن مجتمع الكيان الصهيوني مجتمع عسـكري مقاتل مجرم، والادعاء السائد في بعض الأوساط بأن الجندي اليهودي جبان، لا أساس له من الصحة، فاليهودي مقاتل شرس، عقائدي، يدافع عن وجوده، ويتميز بحقد دفين ضد معظم البشر توارثه عبر الأجيال.

٥ ـ منذ اصطناع الكيان الصهيوني على أرض فلسطين وهو يحلم بالصلح مع الدول العربية، وبحدود مفتوحة، وأن يصبح جزءاً من نسيج المنطقة، أو على الأقل تقسيم العالم العربي إلى قسمين يكون هو في أحدهما، ويمكن البدء بتحييد أحد القسمين إن لم يستطع أن يكون جزءاً منه.

٦ ـ إن وجود عدد كبير من الفلسطينيين في الأراضي المحتلة يشكل خطراً وجوديّاً على الكيان الصهيوني لضعف التكاثر في صفوفه، وكثرته بين الفلسطينيين، وعليه اجتراح الحلول لهذه المشكلة.

٧ ـ أمنت حرب ١٩٦٧ حدوداً آمنة للكيان الصهيوني، لن يتخلى عنها، أو عن بعضها إلا بصلح يضمن أمنه، وبشروط يفرضها ولو بالقوة، بغض النظر عن قرارات الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، لأنه يعتمد بوجوده أصلاً على قوة داعميه ثم قوته.

٨ ـ يصعب عليه الاستمرار في حرب طويلة الأمد، كما لا يستطيع تأمين وجوده في أراضٍ شاسعة إن استطاع احتلال رقعة واسعة من الأراضي. فهو في النهاية قليل العدد، ودولة صغيرة في مقياس الدول.

هذا واقع العدو وبعض أهدافه، أما أهداف العالم العربي فهي في الأصل استئصال هذا المرض الخبيث من جسده. ولكن هذه الأهداف تطورت بعد الخيبات المتوالية، فأصبحت أقصى الأماني استعادة الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ بموجب قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ الذي يضرب به العدو عرض الحائط معتمداً على دعم أميركي غير محدود، وسكوت بقية الدول الكبرى. ولما توصل السادات والأسد إلى قناعة بأن العدو لن ينفذ القرار الدولي، ولن يتخلى عن شبرٍ واحد من الأراضي التي احتلها في حرب الأيام الستة، كما يسمونها سنة ١٩٦٧ قررا استعادتها بالقوة، كما ذكرنا في بداية الحديث عن الحرب. وهذا ما يدَّعيه الاثنان.

وكان التعاون بين الطرفين مفروضاً عليهما مع انعدام الثقة بين الرئيسين لأسباب كثيرة منها ما عاناه الأسد، وضباط البعث، في أثناء الوحدة بين سورية ومصر.

وقد أشرنا إلى اختلاف الأهداف بين الأسد والسادات، فالأسد كان يرغب بأن يستعيد الجولان، ويستعيد الجيش المصري سيناء، ويصل إلى

المعابر (المضائق)، ويضغط الطرفان في الشمال والجنوب على العدو حتى يرضى بشروطهما، وأما السادات فقد كان هدفه استعادة الأرض، والسلام مع العدو... وبيَّنا كيف وضع المصريون خطة غرانيت٢ لعرضها على السوريين حتى يوافقوا على المشاركة في الحرب، لا لتنفيذ تلك الخطة.

ولاريب أن الطرفين بذلا جهداً كبيراً، وقاما بتجارب وبيانات عملية شاقة تحضيراً للحرب. ولكن الأسد لم يدرك أهداف السادات حتى لا نقول ألاعيبه، ووثق أكثر من اللازم بالسوفييت، ولم يحسن تقدير التعاون العضوي بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني. هذا إن أحسنّا الظنَّ بنواياه.

وقد حقق الجيشان المصري والسوري، المفاجأة ذات الأهمية الكبرى في أي حرب، فنفذ الجيش المصري عبور القناة بنجاح منقطع النظير، وتمكن من العبور بقوات كبيرة إلى الضفة الشرقية للقناة بخسائر أقل مما لو كان ينفذ مشروعاً (بياناً) عمليّاً تدريبيّاً لا عدو حقيقيّاً فيه.

وبعد العبور واتخاذ المواقع الدفاعية بدأت الأخطاء تتوالى، فلا استغلت القيادة النصر، وارتباك العدو، ولا استثمرت الفوز، وتقدمت نحو المضائق، ولا هي حافظت بقواتها على مواقع دفاعية قوية مدة مناسبة، بل هي تقدمت نحو المضائق بعدما استعد العدو لمواجهتها، فكبَّدها خسائر فادحة كما تقدم ذكره، وفشل هجومها.

ويلاحظ المراقب تباين مواقف السياسي والعسكري، وتضارب آرائهما، وكان واضحاً جليّاً تدخل السياسي بدقائق أعمال العسكري، ما أربك الطرفين وأدى إلى تغيير القائد (الشاذلي) أثناء المعركة، وانقلب النصر إلى حصار المنتصرين، والقبول بشروط لوقف إطلاق النار لم يكونوا ليقبلوا بها لولا الحصار والخوف من الهزيمة.

وعلى الجبهة السورية بدت واضحة شجاعة الجندي السوري، وكيف تمكن من اختراق خط دفاعي محصن تحصيناً جيداً، ويدافع عنه جنود مدربون، مجهزون بأحدث وسائط الدفاع. ما كلَّف المهاجمين خسائر فادحة.. فالشجاعة وحدها غير كافية، فقد كان واضحاً ضعف التنسيق بين الوحدات المهاجمة، وسوء الاتصالات، كما يستنتج من مذكرات حمدون عدم الثقة بكفاءة القيادة...

وهكذا جاءت نتيجة الحرب احتلال العدو أراضي جديدة، بدل استعادة الأراضي المحتلة في الجولان. وما قيل عن استعادة أراضٍ كان ثمرة سياسة معينة، ومساومات سنتحدث عنها لاحقاً، علماً بأنني لا أعرف بالضبط ما استعيد، فقد زرت المنطقة، فور السماح لي بالعودة إلى سورية سنة ١٩٩٧، وذهبت إلى القنيطرة، فوجدت جزءاً بسيطاً منها سلِّم إلى السوريين وقد نمت فيه الأشجار، وفرضت عليه شروط بعضها معلن وبعضها سري، وأنشئت قبل القنيطرة مدينة جديدة فيها مؤسسات الدولة. وسأتحدث عما شاهدته في مكانه من هذا الكتاب.

إذاً توقف القتال في ١٠/٢٣، والعدو متفوّق، ويحاصر جزءاً من القوات المصرية في الجنوب، ويحتل أجزاء جديدة من الأراضي السورية على الجبهة الشمالية. ولكنَّه تكبد خسائر فادحة جعلته إلى حدٍّ ما يحسب حساباً لوصول قوات عربية إضافية دعماً للجبهتين وبخاصة الشمالية.

ولاريب أن تفوُّق العدو يعود لأمرين: أولهما تفوُّقه الجوي وتميُّز طائراته، وإهمال القوات المهاجمة وعدم تركيزها في بداية الحرب المفاجئة على تدمير سلاحه الجوي بشكل كامل، كما فعل هو في حرب ١٩٦٧. وهذا أمر مستغرب ومجال انتقاد الخبراء العسكريين، فقد حقق العرب المفاجأة، وكان بإمكانهم في بداية المعركة إخراج السلاح الجوي المعادي خارج المعركة لو فعلوا كما فعل هو في حرب ١٩٦٧.

والأمر الثاني الدعم الأميركي غير المحدود الذي لم يقابله دعم سوفييتي بالمستوى ذاته للعرب.

وفي ظل هذا الواقع بدأت المفاوضات، وضغطت دول الخليج وقطعت إمدادات النفط عن الولايات المتحدة، والدول الداعمة للعدو وسنتابع الأحداث وفق تسلسلها الزمني.

أما نتيجة الحرب الفعلية كما ظهرت بعد سنوات فقد جاءت أسوأ من نتيجة حرب ١٩٦٧. لأن العرب في تلك الحرب خسروا المعركة، ولكنهم لم يستسلموا، ولم يصالحوا، أما ما أثمرته هذه الحرب فهو تحقيق حلم «إسرائيل» بالصلح مع مصر، ومع أن سيناء قد استعيدت، فقد كان ثمن استعادتها بالإضافة إلى الصلح، وتحييد مصر عن الصراع العربي الإسرائيلي شروطاً قاسية بعضها معلن، وبعضها خفي، فرضت على مصر وكبلتها إلى أمد لا يعلمه إلا الله.

أما الجولان فقد بقي تحت سيطرة العدو الذي ضمه لاحقاً.

ومن المستغرب في تلك الحرب، ويعدُّ نقطة ضعف كان يجب التنبه لها مسبقاً، عدم وجود قيادة عسكرية موحدة تنسق العمل العسكري بين الجبهتين الشمالية والجنوبية، وتوزع المهمات بحسب تطور العمليات، وكأن التنسيق انتهى بتعيين ساعة الصفر، وبدأ كل طرف يتصرف بحسب ظروفه. واقتصر الاتصال ـ كما يفهم من المؤلفات التي اعتمدت عليها ـ على تبادل البرقيات بين الرئيسين. وكأنهما قيادة عسكرية موحدة، وفاشلة إلى أبعد الحدود. ومثال ذلك أن السوفييت ـ كما ذكرنا ـ يقولون للسادات إن الأسد طلب وقف إطلاق النار في بداية الحرب فيتصل السادات بالأسد للاستفسار، ويرد الأسد بأن هذا غير صحيح. فما هكذا تورد الإبل والقضية أخطر من قال لنا وقلنا له..

لقد أسفرت الحرب عن فرض الولايات المتحدة سياستها الكيسنغرية، التي تضع مصلحة «إسرائيل» فوق كل اعتبار، على جميع الأطراف. وبخاصة غولدا مائير وقادة «إسرائيل» المتمردين والمتغطرسين. فبعدما كانت القيادة الصهيونية تصرخ في بداية الحرب «أنقذوا إسرائيل» تدخلت الولايات المتحدة بكل قواها ـ كما ذكرنا ـ وأنقذت الكيان المتهالك. ولاريب أنها صاحبة الفضل، ومسببة استعادة العدو المبادرة. وكيسنغر أعلم من «إسرائيل» بمصلحتها ولذلك أمضى وقتاً طويلاً بالمفاوضات، ولجأ إلى ما عرف بالزيارات المكوكية بين «إسرائيل» وكلٍّ من مصر وسورية، فأخرج مصر من المجموعة العربية المعادية لـ«إسرائيل» والتي في حرب معها، وعقد اتفاقية بين سورية و«إسرائيل»، أجَّلت موضوع الانسحاب من الجولان، وفرضت شروطاً سرية، كما فرضت في المعاهدة مع مصر بنوداً سرية، والله وحده يعلم متى ستكشف تلك الشروط للرأي العام.

ولاريب أن موقف الدول العربية الداعم لمصر وسورية، وبخاصة الدول النفطية، التي أوقفت تصدير النفط إلى الولايات المتحدة ساعد كيسنغر على تليين موقف قادة «إسرائيل»، وحقق لمصر وسورية مكاسب بسيطة في المفاوضات الطويلة، تلك المكاسب التي لم يكن من الممكن الحصول عليها لولا الموقف العربي المذكور. ورغبة الولايات المتحدة بأن تحفظ للنظام السوري ماء وجهه تجاه شعبه وتجاه العالم لحرصها عليه.

ومن طرائف ما بعد تلك الحرب أن جاءني الشيخ محمد المجذوب برواية عن العبور يمدح فيها السادات... وبعد مراجعتها اعتذرت عن نشرها. فاستاء كثيراً، وبخاصة أنه أعطاني كتاباً خطيّاً يفوضني فيه بنشر جميع مؤلفاته. ومما أذكره أنه قال لي محتدّاً عندما اعتذرت عن نشرها: إن عبد الناصر أرسل يوماً فنانات وموسسات بلباس فاضح في باخرة لتأدية فريضة الحج، حتى تمنعهم السعودية من النزول من الباخرة في جدة، ليهاجم الملك فيصل، ويعلن أمام العالم أنه يمنع المصريين من الحج... أما في عهد السادات فقد صاح الجنود «الله أكبر» وعبروا القناة، وحطموا كبرياء العدو...

فأجبته إنني أقدر ذلك العمل الرائع، وأنا عسكري أعرف تماماً أهميته، ولكنني لا أحب النفاق، ولن أمدح زعيماً وهو على قيد الحياة. وإن كان من الممكن الثناء على عمل ما يقوم به. لأنه لا أحد يضمن لي ألا يغيِّر هذا الزعيم مواقفه قبل موته! فإن مات ولم يغيِّر أو يتغيَّر، فيمكن أن نكتب عنه ونمدحه.

وبعد مدَّة زار السادات القدس كما هو معروف. فزارني الشيخ المجذوب، وقال لي: أنت بعمر أبنائي، ولكنك كنت أوعى مني. لقد خيَّب السادات أملي.

الوضع العام بعد توقف القتال

هدأ القتال على الجبهتين، وجدد السادات طلبه بإرسال قوات مراقبة دولية من قبل مجلس الأمن، لمراقبة وقف إطلاق النار والفصل بين القوات المتحاربة، ووقَّعت سورية مع العدو في ١٠/٢٥ اتفاقية فك اشتباك..، ثم وافقت «إسرائيل» على تزويد الجيش الثالث المصري المحاصر بالمؤن. وتلا ذلك في ١١/١١ مفاوضات بين مصر و«إسرائيل» في المنطقة المعروفة باسم الكيلو ١٠١ على الطريق بين القاهرة والسويس.

وقد بدأ السادات الخطوة الأولى في طريقه إلى السلام، وفي تصحيح علاقات مصر مع الولايات المتحدة خصوصاً، والغرب عموماً. فقد طلب كيسنغر زيارة مصر، فرحب السادات باستقباله.. وزارها في ١٩٧٣/١١/١٩. ولاريب أن اتصالات كثيرة جرت بين مصر السادات وواشنطن، من يوم تولى السادات رئاسة مصر، وبوساطة قنوات مختلفة. ومن تلك الزيارة أصبح الرجلان صديقين، وأصبح العزيز هنري بحسب تعبير السادات نجم تلك المرحلة... بينما تأخرت زيارة كيسنغر دمشق إلى ١٩٧٣/١٢/١٤.

لقد كانت خسائر الطرفين المتحاربين كبيرة جداً، ولكن الوضع الاقتصادي في العالم العربي لم يتأثر بالنسبة ذاتها التي تأثر بها بعد كارثة ١٩٦٧.. وقد وقف العرب مع سورية ومصر وقدموا مساعدات سخية، وساعدهم في ذلك زيادة دخل الدول النفطية من عائدات البترول التي ارتفعت بشكل كبير، ووجود قادة محترمين ومخلصين على رأس معظم الدول العربية في ذلك الوقت.

ومع ذلك فقد وافق مؤتمر القمة العربي الذي عقد في الجزائر في ١٩٧٣/١٢/١٠ على الاعتراف بحق «إسرائيل» في الوجود دولة مستقلة، وكان ذلك إحدى حلقات التنازل على مرِّ تاريخ الأزمة الفلسطينية. ولم يشعر العرب بما جرَّت عليهم تلك الحرب من ويلات إلا بعد سنوات، وبخاصة أنهم لم يحسنوا استغلال ما حققوه في تلك الحرب.

شهرة دار النفائس

أما بالنسبة لعملي في دار النشر فلم يتأثر كثيراً. فقد كان سوق الكتاب في مصر وسورية بالنسبة لي ضعيفاً أصلاً، وكانت السعودية ودول الخليج تغطي ذلك الضعف، إذ كانت تستهلك الكثير من الكتب، وبخاصة أن الفضائيات لم تكن قد انتشرت وشغلت وقت القارئ، ولم يكن الإنترنيت قد وجد واستغلَّه قراصنة الكتب. ولم تكن الهواتف الذكية قد اخترعت وسلبت عقول الكبار والصغار. فكان الكتاب وسيلة المعرفة الأهم، وله مكانته عند جميع القراء.

وبدأ النظام السوري يقتنع بتخليِّ عن العمل السياسي، كما بدأ من كان يقاطعني خوفاً من إشكالات قد يواجهها بالتردد على مكتبي، فبدأت الدار تخطو خطى بطيئة نحو النجاح، ولكنها خطى ثابتة.

وبدأت الدار تُعرف بجودة إنتاجها، ودقة طباعتها، وحسن إخراجها الكتب لدرجة أن أحد الشركاء في دار مجاورة كان يملك داراً في الكويت، جاءني يطلب أن أشرف على طباعة بعض منشوراته فاعتذرت لأنه شريك دار مجاورة وصديقة، فاستغرب الأمر وسأل ما دخلي في الأمر، فبيَّنت له وجهة نظري، ولما أصرَّ أعلمته بأنني أتقاضى ١٥٪ بدل إشراف، بينما شريكه يتقاضى ١٠٪ فوافق على العمولة، فقبلت بشرط أن يوافق شريكه على التعامل معي فوافق.

وهكذا أخـذت تنهال على الدار طلبات إشـراف من الكويت والسـعودية والإمارات، فشكل الإشـراف على الطباعة للآخرين دخلاً جيداً للدار. كما كثر المؤلفون الذين يعرضون على الدار طبع مؤلفاتهم. وبعضهم جرى الاتفاق معهم بالمراسلات.

وأذكر أنني لاحظت مخططات وخرائط كتاب الطريق إلى المدائن رسـمها المؤلف بقلم رصاص على ورق عادي، فأخذت على عاتقي إعادة رسمها بقلم خاص على ورق (كالك)، ما جعل بعض الزملاء يمازحني متندراً ويقول لي: لقد أصبحت مدير دار نشر ولم تعد ضابطاً يرسم الخرائط.

ولما صدر الكتاب بتلك الخرائط والمخططات الجميلة بعد أن كتب خطوطها خطاط متميز نال إعجاب كل من رآه. فتعمدت أن أرسل نسخة منه هدية إلى قائد الجيش السوري يومها مصطفى طلاس لوجود معرفة شخصية بيننا إذ خدمنا مدة قصيرة معاً في سـلاح المدرعات، ولأعلمه بشكل غير مباشر بأنني تخلَّيت عن العمل السياسي لصالح العمل الثقافي.

وقد فوجئت بعد مدَّة قصيرة برسالة من رئيس مكتبه، وابن دورتي في الكلية العسـكرية مروان جوخدار يقول فيها: بعد الشـكر، إن قائد الجيش اطلع على الكتاب، وعمَّم على قطعات الجيش منوِّهاً به وناصحاً بشرائه والاطلاع عليه.

وبمناسبة الحديث عن هذا الكتاب يحسـن بي رواية قصة طريفة تتعلق به وبجو النشـر في تلك الأيام. فقـد كان للمؤلف صديق يعمل فـي ليبيا أطلع المسؤولين على الكتاب فأعجبوا به وقرروا شراء ألفي نسخة منه.

فاتصل بي المؤلف وأعلمني بالأمر وبأنهم سيأخذون الكتاب بحسم بسيط، وعليَّ أن أدفع إليه فرق حسم الجملة الذي أعطيه إلى الموزعين. فوافقت. ولكن مشكلة التنفيذ بالنسبة إليَّ أنني لا أسافر إلى ليبيا وأخشى التعامل مع أي نظام كالنظام الليبي في زمن القذافي. فاتفقت مع زميل له علاقات تجارية مع المؤسسة التي ستستورد الكتاب أن يصدِّره باسمه مقابل عمولة يحسمها عند وصول القيمة. وفور علم المؤلف بوصول المبلغ حضر إلى بيروت هو وعائلته فتعارفنا، بعد أن كان تعاملنا بالمراسـلات، وفوجئ بدفع المبلغ المستحق له كاملاً، وكان مبلغاً جيداً، اشترى بمعظمه سيارة بيجو ٤٠٤ شحنها إلى مصر، وأصبحنا أصدقاء. ويبدو عندما أعلنت المؤسسة الليبية عن حاجتها إلى ألفي نسخة من الكتاب المذكور

علم بالأمر أحد المزورين المشهورين في بيروت، أو أحد المشغلين لذلك المزور الخبيث. ولم يدرك أي منهما أن أمر التوريد مرتب كالعادة في دول العالم الثالث، فعمد إلى طبع ألفي نسخة من الكتاب.

وبعد إتمام العملية أعلمني ناشـر صديق أنه رأى الكتاب في مطبعة وعرف المزور فأنَّبه، وأعلمه بصداقتنا. وأنه سيتدخل بيننا لحل الإشكال مقابل دفع كلفة الكتاب وعدم ملاحقة المـزور. أدركت أن المزور وجد نفسـه في ورطة، فهو لا يسـتطيع بيع كمية بهذا الحجم بالجملة، وبيعها بالمفرق سيحتاج إلى وقت يكشف أمره. وأراد هو وصديقي أن يحلوا الموضوع بطريقة ذكية.

فكرت في الملاحقة القانونية فوجدتها غير مجدية، لما أعرفه عن علاقات المزورين بالذين يفترض بهم أن يلاحقوهم، وهم يشـكلون لهم مصدر رزق، وصديقي لن يساعدني لأنه يستثمر ذلك المزور في بعض الأمور، فوجدت أنه «بالناقص مشكلة» كما يقولون. فكتمت ما دار في ذهني، ووافقت على الرغم من سـوء تلك الطبعة وعدم حاجتي إليها. وطلبـت أن يزورني المزور لأنهي الموضوع معه.

ولما جاء مكتبي دخل ضاحـكاً، معتذراً، وقال: سـأعقد معك اتفاق عدم اعتداء. فلن أزوِّر لك بعد اليوم أي كتاب مقابل معاملتك الجيدة معي، وشـراء الكتاب. وهكذا كان، فلم أعلم بعدها أنه زوَّر لي كتاباً.

وكانت تزوَّر معظم منشـورات الدار، فأنزعج من ذلـك، فيقول لي محمد المعلم صاحب دار الشروق، لا تنزعج فالمزور يفتح لك أسواقاً جديدة، فيعرف الكتاب فيها، وهو لا يستطيع أن يعيد التزوير دائماً. ثم إن هذا دليل نجاح فاحمد الله أن كتبك ناجحة وتزوَّر...

ومن طرائف تلك الأيام أن مؤلفاً عراقيّـاً لا أعرفه، كان يزور دوراً مجاورة فدخل مكتبي، وجرَّنا الحديث إلى القرامطة، فقلت له: إنني على استعداد لنشر تاريخهم.

وبعد أشـهر جاءني بكتاب عن القرامطة. راجعت الكتاب فوجدته شـتائم ومسـبات وروايات غير موثقة، فقلت له: إن ما أعرفـه أن التاريخ يروي أحداثاً موثقة، وللمؤرخ إن شاء أن يحلل الأحداث. أما أن يكون الكتاب شتائم، فيصعب عليَّ نشره، فشتمني واتهمني بعدم الوفاء بالوعد، ولم تجدِ محاولاتي إقناعه بأنني

سأنشر الكتاب إن حذف الشتائم ووثق الأحداث، وغادر مكتبي غاضباً، ولم أره بعد ذلك.

ولم أواجه تصرفاً مشابهاً من أي مؤلف خلال أكثر من خمسين عاماً. كنت خلالها لا أبخل بالنصيحة على أحد، ومن كان يرى في نصيحتي صواباً يعمد إلى تنفيذها، ومن لا يقتنع بها يتجاهلها، ولا يهاجمني. وأنا أرى أن ذلك هو النصيحة المحمودة.

وحدث مرَّة أن وصلني كتاب من شيخ سوري موضوعه الأحوال الشخصية في الإسلام، مع مقارنة بقانون الأحوال الشخصية السوري. فنصحته في رسالة أن ينشر الكتاب في سورية حيث يلقى رواجاً، وأن يوحِّد طريقة تخريج الأحاديث قبل عرضه على الناشر في سورية، لأنه لم يلتزم طريقة علمية واحدة. وتوقعت أن يشكرني، ولكنه كتب لي: ليس لك أن تتدخل في عمل المؤلف وما عليك إلا أن تقول سأنشر أو لا أنشر، فأجبته شاكراً نصيحته بجملة أتبعتها بلن أنشر.

وخلاف ذلك فقد نشأت بيني وبين معظم المؤلفين صداقة ومودة.

وقد شغلني العمل، ونقلني إلى محيط جديد، فرض علي الاختلاط بالناس، والتخلي عن الحذر، في التنقلات بعد أن اطمأننت للتوقف عن ملاحقتي، وغالباً ما كنا عائلتي وبعض الجيران نمضي أيام الآحاد في نزهات جماعية في الطبيعة. وعندما كنا نقصد أحراش بيت مري نسمع من بعد أصوات رصاص، فيقول لنا عبد الكريم النحلاوي، هذه أصوات رمي تدريب تقوم به الكتائب، فلا نعير الأمر اهتماماً كبيراً.

واختتم العام ببدء مؤتمر جنيف برئاسة الأمين العام للأمم المتحدة يومها «كورت فالدهايم» الذي لم تحضره سورية وحضرته مصر والأردن و«إسرائيل».

❀ ❀ ❀

أهم أحداث سنة ١٩٧٤

بدأ العام بعودة كيسنغر في ١٩٧٤/٠١/١٠ إلى المنطقة، وبدء جهوده وتنقلاته المكوكية لمتابعة فكِّ الاشتباك بين القوات المتداخلة، والعمل على تحقيق السلام.

وفي ١٩٧٤/٠١/١٨ وقعت اتفاقية فكِّ الاشتباك الأولى بين القوات المصرية والقوات المعادية. ومما جاء فيها أنه على مصر سحب دفاعاتها الجوية والأسلحة المضادة للطائرات، حتى من الضفة الغربية من القناة، إلى العمق المصري، وتنازلات كثيرة أخرى كفتح باب المندب وقناة السويس للملاحة «الإسرائيلية» عربوناً على حسن نوايا مصر... وأن لا تسمح مصر بأية غارات فلسطينية إلى داخل الأراضي التي تحتلها «إسرائيل»، وأن لا توجِّه أية دعاية معادية لـ «إسرائيل»[1].

وفي العراق عادت الحرب بين الأكراد والحكومة العراقية في الشهر الخامس من العام ٧٤، بينما وقعت في جنيف اتفاقية فصل القوات بين سورية و«إسرائيل» في ١٩٧٤/٠٥/٢١، وجاء هذا التوقيع بعد اشتباكات عنيفة بين قوات الطرفين خلال شهري نيسان وأيار على جبل الشيخ.

وتضمَّن الاتفاق «تخلِّي «إسرائيل» عن المستطيل الذي احتلته في حرب تشرين، وكذلك عن شريط ضيِّق من الأرض يتلوى حول القنيطرة، رمز تسليم الجولان ١٩٦٧.

ورغم أن المدينة بقيت في المنطقة العازلة التابعة للأمم المتحدة، وخارج خطوط القوات السورية، فقد أعيد بعضها إلى الأيدي السورية. ولكن الإسرائيليين قبل انسحابهم، نسفوا وسحقوا بالبلدوزرات كل بيوتها، وخزانات مياهها، وخطوط مواصلاتها، كما فعلوا بمنطقة السويس، وقد أدانتهم الأمم المتحدة على فعلتهم هذه، وجاء تدمير القنيطرة مؤكداً لرأي السوريين في أن الإسرائيليين هم

(١) سيل، باتريك، م.س. ص٣٨٢.

همج العصر الحديث. وهكذا لم تحصل سورية إلا على بعض مدينة القنيطرة مقابل ما خسرته في الحرب من ثروات في المال والرجال (٦٠٠٠) شهيد. وحصل الإسرائيليون على بعض الرضى من زيادة قوات الأمم المتحدة حتى وصلوا إلى (١٢٥٠) رجلاً، ومن الاحتفاظ بالسيطرة على المرصد في جبل الشيخ، وعلى التلال الواقعة غرب القنيطرة مباشرة. ووافقت كل من سورية و«إسرائيل» على تحديد قواتهما وأسلحتهما على عمق ٢٠ كيلومتراً من خطوطهما الأمامية، وأن لا توضع قذائف سام المضادة للطائرات ضمن منطقة عمقها خمسة وعشرون كيلومتراً. وقد استعادت سورية بالمفاوضات أراضي قليلة جدّاً.

إن فصل القوات وفك الاشتباك مع سورية كانا ضرورة سياسية محتومة لتحقيق السلام المرغوب فيه كثيراً، أما اتفاقية الجولان فكانت مصحوبة هي الأخرى بمذكرة سريَّة وعدت بموجبها أميركا بالتنسيق مع «إسرائيل» في أية مبادرة سلام مع سورية في المستقبل[1]. ويلاحظ من سير المفاوضات أنه «كان اجتهاد كيسنغر في مساعدة «إسرائيل» يعادل اجتهاده في تقسيم العرب وإضعافهم وتقطيع أوصالهم، فقلب مقولة الخارجية الأميركية رأساً على عقب. وهي المقولة التي كانت تؤكد أن الدعم الأميركي لـ«إسرائيل» ينفِّر العرب من أميركا، فأكد بأن الأمر على عكس ذلك تماماً، وأن قيام تحالف أميركي إسرائيلي قوي سيجعل العرب يأتون خاضعين مستجدين. وقد يكرهنا العرب، ولكن سيضطرون إلى المجيء إلينا»[2].

وفي الوقت الذي كان السوريون والمصريون يرممون ما خرَّبته الحرب ويستعيدون ما فقدوه من سلاح وعتاد، ويجرون مفاوضات عسيرة مع عدو متغطرس ووسيط منحاز، كان العرب يدعمون البلدين قدر استطاعتهم.

فعقد في الرباط (المغرب) مؤتمر قمة عربي حصلت فيه مصر وسورية على مساعدة (منحة) سنوية مقدارها (٥٧٠) مليون دولار لكل منهما، وحصل الأردن على (٣٠٠) مليون دولار، ومنظمة التحرير على (٢٨) مليون دولار، وذلك من صندوق خاص أسستهُ السعودية والكويت والإمارات[3].

---

(١) سيل، باتريك، م.س. ص٣٩٦، ٣٩٧.

(٢) سيل، باتريك، م.س. ص٣٩٧، ٣٩٨.

(٣) الساطع، أكرم، تاريخ ووثائق، م.س. ص٣١١.

وفي ١١/٢٢ تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً يعترف بحق الفلسطينيين بالاستقلال وإقامة دولة خاصة بهم بقي حبراً على ورق، لانحياز الولايات المتحدة، ومن يسير في ركابها، إلى «إسرائيل».

وفي ١٢/١٥ من العام ذاته أسس الإمام موسى الصدر، رجل الدين الشيعي القادم من إيران حركة «اتحاد محرومي لبنان» وكان لها لاحقاً جناح عسكري صيغ اسمه من الأحرف الأولى للحركة «أمل»، التي سيكون لها دور مهم في تاريخ لبنان لاحقاً.

❁ ❁ ❁

الحروب في لبنان

إن ما سأكتبه عن الحروب في لبنان التي اندلعت في ١٩٧٥/٠٤/١٣ لا يتعدى المشاهدات والآراء الشخصية، ووصف الحياة في لبنان في تلك الأيام، إذ تحتاج الكتابة عن تلك الحروب اللعينة عشرات المجلدات، لطول مدتها التي استمرت لغاية العام ١٩٩٠م مع فترات استراحة كانت تطول وتقصر بحسب العوامل التي تطرأ عليها، والتدخلات الإقليمية والدولية فيها.

فلبنان الكبير بحدوده الحالية دولة حديثة أنشئت بقرار فرنسي سنة ١٩٢٠، لتكون دولة يتميَّز فيها المسيحون الموارنة، إذ عندما قسَّمت معاهدة «سايكس بيكو» الدول العربية التابعة للخلافة العثمانية، كان من ضمن حصة فرنسا سورية ولبنان. وقبل ذلك التاريخ كان يعرف لبنان بأنه جبل في بلاد الشام.

ونظراً لوعورة ذلك الجبل، كان ملجأ للمضطهدين في بلادهم على مرِّ العصور، ومنهم الموارنة الذين عاش مؤسس مذهبهم «مار مارون الراهب» في شمالي سورية، بين حماة وحلب، ثم انتقل أتباعه إلى جبل لبنان.

وتعدُّه سورية جزءاً منها سلخهُ المستعمر، ولكن إنشاءه لقي قبولاً من السوريين، وبخاصة أنه جاء بناء على تفاهم بين مسلميه ومسيحييه. ولهذا كان بين البلدين علاقات حسن جوار وتعاون، إذ ليس للبنان حدود برية إلا مع سورية وفلسطين المحتلة التي يقاطعها لبنان. فلا يستفيد من حدوده معها.

كما كان رمزاً للوجود المسيحي في الشرق العربي، ويقدِّر العرب دوره، ووضعه الخاص.

وفي حرب ١٩٦٧م لم يدخل لبنان الحرب، فهو وإن كان يناصر القضايا العربية، فقد كان يدرك حدوده ويحسن تقدير وضعه ويحافظ على الحياد، ويتفهم العرب مواقفه.

ولما حلَّت بالعرب في تلك الحرب هزيمة نكراء، حاول الحكام الفاشلون دعم نضال الشعب الفلسطيني، الذي كان قد بدأ يشعر بضرورة العمل الجدي والفعال في تحرير بلاده، بصفته صاحب القضية.

وكانت الدول العربية تفتح حدودها للأعمال الفدائية التي كان يقوم بها متطوعون فلسطينيون. ولكنها ولأسباب خاصة بكل دولة بدأت بتضييق العمل عليهم. وبدل أن تساعد المنظمات الفلسطينية على توحيد جهودها، ووضع استراتيجية موحدة لعملها، أخذت بعض الدول تنشئ فصائل خاصة بها، فتبنت سورية منظمة الصاعقة، وحاولت السيطرة على فتح، وعلى منظمة التحرير، ولما عصي عليها عرفات شجعت على الانشقاق في المنظمة، وتبنت ليبيا تحت حكم القذافي جبهة النضال، وأنشأ العراق جبهة التحرير العربية. وانقسمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بهمة الدول العربية إلى شعبية، وديمقراطية، وقيادة عامة...

وبما أن الدول العربية عدَّت منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني في مؤتمر الرباط سنة ١٩٧٤، وقررت لها ٢٨ مليون دولار سنويّاً، فقد اكتفت معظم الدول العربية بدعم المنظمة، ولم تنشئ منظمات أخرى خاصة بها. وسنلاحظ لاحقاً صراعاً بين المنظمات بحسب سياسة الدول التي تتبع لها تلك المنظمات أو تساعدها.

وأدى التضييق على الأعمال الفدائية في دول الجوار الفلسطيني إلى تناميها في الدولتين الأضعف اللتين يكثر فيهما الوجود الفلسطيني، وتسمح تضاريس الأرض بالعمل فيهما أكثر من غيرهما، وهما الأردن ولبنان. ولما تجاوزت المنظمات الفلسطينية الحدود المسموحة لها من قبل الدولة في الأردن، حصل الصدام الذي تحدثنا عنه سابقاً بين الجيش الأردني والقوات الفلسطينية سنة ١٩٧٠، وعرفت تلك المجازر بأيلول الأسود.

وهكذا لم يبق أمام الفلسطينيين من مجال للعمل الفدائي ضد العدو الصهيوني إلا من لبنان.

ولاريب من وجهة نظري أن المنظمات الفلسطينية تجاوزت في تصرفاتها حدود العمل الفدائي إلى مظاهر مسلحة في مختلف المدن اللبنانية، وقتال بينها يترك آثاره المدمرة على أملاك اللبنانيين ويوقع أحياناً ضحايا بينهم، خلافاً لما

يفترض من مراعاة مصالح البلد المضيف، فأزعجت تصرفاتهم اللبنانيين عموماً، والمسيحيين خصوصاً، الذين وجدوا في ذلك خطراً محتماً على دولتهم.

ومن المفيد التذكير بأن حادثة إطلاق النار ـ من قبل فدائيين ينتمون إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ على طائرة لشركة العال في مطار أثينا، ورد فعل العدو بالإغارة على مطار بيروت، وتدمير ١٣ طائرة مدنية على أرضه، سبب خسائر كبيرة للدولة اللبنانية، ولم يواجه يومها المغاوير المعتدون أي مقاومة من القوات العسكرية اللبنانية، بل نتج عن ذلك حملة كتائبية شرسة على تجاوزات الفلسطينيين. فتعاطف معهم المسلمون، وبدا الانقسام جليّاً بين الفريقين، ما أدى إلى اتفاق القاهرة برعاية عبد الناصر سنة ١٩٦٩، ومثَّل منظمة التحرير في المفاوضات رئيسها ياسر عرفات، بينما مثَّل لبنان العماد إميل بستاني قائد الجيش اللبناني، والذي سمح للفلسطينيين بالعمل في منطقة محددة جنوب شرقي لبنان.

وقد نبهت مجمل تلك الأحداث المسيحيين إلى ضرورة الاستعداد للتصدي للوجود الفلسطيني المسلح في لبنان ولما يسمونه «الخطر على الصيغة اللبنانية».

ولمّا حصل صدام ١٩٧٣ الذي تحدثنا عنه سابقاً، كان هدف الرئيس سليمان فرنجية القضاء على التنظيمات الفلسطينية، وضبط الوجود الفلسطيني في لبنان كما حدث في الأردن. ولذلك لم يتورع عن قصف بعض المخيمات بالطائرات. وكنت أشاهد الطائرات من شرفة منزلي وهي تنقض من فوق المدينة الرياضية لتقصف بالصواريخ مخيمات صبرا وشاتيلا. ولكن ضغط الدول العربية على لبنان، وتهديدات حافظ الأسد بالتدخل عسكريّاً، أدى إلى وقف القتال يومها، جبراً لا اقتناعاً.

ولمّا لاحظ رئيس الجمهورية، وزعماء الموارنة اليمينيون تنامي التيار اليساري بزعامة كمال جنبلاط، والتلاحم بينه وبين المقاومة الفلسطينية، اتفقوا في ما بينهم على التسلح والاستعداد لمواجهة المقاومة الفلسطينية واليسار المتعاون معها. وأعطى رئيس الجمهورية أوامره إلى الجيش اللبناني أن يغض النظر عن عمليات تسليح الأحزاب المسيحية، وأن يساعد فيها، وبدأ تخزين الأسلحة في مراكز كثيرة في الجبل، وحتى في بعض الأديرة.

وانتشرت مراكز التدريب التابعة لحزب الكتائب، والوطنيين الأحرار، وجيش التحرير الزغرتاوي (المردة لاحقاً). كما ظهرت تنظيمات أخرى أقل أهمية مثل:

«التنظيم» و«أنصار الجيش» و«أمل» من غير المسيحيين التي لاقت بعض الدعم من الجيش.

ونشـــط ميناء جونية الذي كانت تصل إليه معظم شحنات الأسلحة. وكانت المخابرات الأميركية تقدم المال والســلاح للمنظمات المارونية بالتنســيق مع المخابرات اللبنانية. وأسهم في ذلك الملك حسين. وكانت عناصر مخابراتية تقوم بعمليات تخريب وتلصقها بالمقاومة الفلســطينية لإشاعة جو من الكراهية لها، وتشويه سمعتها.

ولا ريب أن الولايات المتحدة كانت تدفع نحو إشعال حرب أهلية في لبنان، وخلق جو من الفوضى فيه لأسباب عدة أهمها:

ـ القضـــاء على منظمـــة التحرير لإراحة «إســرائيل» منهـــا. أو ربما تهجير المسيحيين أو بعضهم لتوطين الفلسطينيين، وإنهاء مشكلة اللجوء التي تؤرقها، المهم إنهاء القضية الفلسطينية.

ـ إلهاء الشعوب العربية للتغطية على المفاوضات بين مصر والعدو المحتل، والتحضير لاتفاقية سيناء وما تلاها.

ـ التغطية على أخبار فشل الولايات المتحدة في فيتنام وانسحابها المذل منها.

وهكذا أصبحت الظروف مهيأة لاشتعال الحرب. وكانت الشرارة التي أشعلتها «حادثة عين الرمانة» كما ذكرنا سابقاً.

بداية الحرب الأهلية اللبنانية

لما بدأت الحرب كانت الأســلحة التي بحــوزة الطرفين، وبخاصة الطرف المسيحي، خفيفة ومتوســطة، بنادق ورشاشات. واقتصر القتال على مناوشات، معظمها في مناطق قريبة مــن المخيمات، وعلى خطف متبــادل بين الطرفين، لتداخل المناطق واختلاط السكان فيها. وقد تابع الناس أعمالهم مع بعض الحذر.

وقد نشــط العقلاء مــن الطرفين في العمــل على التهدئــة، وتجنب تطور الصراعات إلى حرب شاملة.

ولكن الأحداث على الأرض كانت أقوى من جهودهم، حتى اضطرت الإذاعة اللبنانية إلى تقديم خدمة تولاها مذيع ما زلت أذكر اســمه «شــريف الأخوي»،

فتقطع برامجها لتذيع إعلاناً عن عدم سلوك طريق ما، لاندلاع اشتباكات عليه، وعن طريق سالكة وآمنة، علماً بأنه لا ضمانة لتحول الآمنة إلى خطرة، والخطرة إلى آمنة.

ومن الطرائف التي أذكرها أنني سمعت في إحدى الليالي نداء من شريف الأخوي يطلب من السادة الذين يلعبون طاولة الزهر على شرفة أحد المنازل، وذكر عنوان منزلي، أن يخففوا من ضرب أحجار الطاولة لأن أصواتها تقرع آذان الجيران كالقنابل وتحرمهم النوم.

وبالفعل كان هيثم المهايني وعبد الكريم النحلاوي يلعبان الطاولة على شرفة منزلي، ما أزعج امرأتين تعيشان وحدهما في بناية مجاورة، فاتصلتا بالإذاعة.

وقد لخَّص باتريك سيل الوضع من وجهة نظره فقال: «وكان طليعة المسيحيين حزب الكتائب الذي يتزعمه بيير الجميل، وهو أقدم المجموعات الأهلية المارونية وأفضلها تنظيماً وتسليحاً. وقد أخذ الرأي العام المسيحي يرى فيه باطراد أقوى المدافعين عن لبنان المسيحي. وقد اصطفت ضدَّه «الحركة الوطنية» التي كانت عبارة عن مجموعة متنافرة الألوان كالموزاييك من الأحزاب الراديكالية المتشددة، والجيوش الخاصة، تجمعت معاً عام ١٩٧٣م تحت لواء كمال جنبلاط، الذي كان شخصية آسرة تثير الفضول والاهتمام. فهو من جهة اشتراكي متقشف من الطراز الغاندي، ومن جهة أخرى سياسي طموح، ومن جهة ثالثة عشائري إقطاعي درزي.

فكانت حركته الوطنية حليفاً وواجهة للميليشيات الفلسطينية التي كان بدون قوتها قادراً على تحدي الموارنة. وعندما أخذت خطوط المعركة ترتسم انحاز معظم سياسيي البلد إلى هذه الجهة أو تلك. فالرئيس سليمان فرنجية والرئيس الأسبق كميل شمعون، وكل منهما له مجموعة أزلامه وقبضاياته المسلحين، انحازوا إلى الكتائب، بينما أصبح السياسيون البارزون السنيون مثل رشيد كرامي، وصائب سلام، ناطقين باسم «القضية الفلسطينية»[1].

وكان رئيس الوزراء، رشيد الصلح، وهو قاضٍ لم يعرف عنه الانحياز إلى أي جهة، ومع ذلك رفض طلب فرنجية إنزال الجيش، وقمع الفلسطينيين، وضرب

---

(١) سيل، باتريك، م.س. ص ٤٤.

الحركة الوطنية، إذ كان وزيراً للداخلية بالإضافة إلى رئاسة الوزراء. وأدى موقفه الصلب إلى شجار بينه وبين أمين الجميل في المجلس النيابي تطاول فيه الجميل عليه وصفعه، كما أدى إلى استقالته من رئاسة الحكومة، في ١٩٧٥/٠٥/٢٣.

ومع ذلك أصرَّ رئيس الجمهورية علــى موقفه الصلب الذي ينبع من طبيعة شخصيته التي تميل إلى فرض رأيه وحل الأمور بالقوة، بدل حلها بالحكمة، ولم يذكِّره أحد بقول الشاعر المتنبي:

وَوَضْعُ النَّدى في موضعِ السَّيفِ بالعلى　　　مضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النَّدى

فشكَّل حكومة عســكرية برئاســة العميد أول المتقاعد نورالدين الرفاعي، ضمت سبعة وزراء من كبار ضباط الجيش، بالإضافة إلى مدني واحد، وأسندت لكل ضابط أكثر من وزارة. فزاد تصرفه الأمور سوءاً، والقتال حدَّة. ولاقت تلك الخطوة معارضة سنية شعبية، ورســمية، فاجتمع قادتهم في دار الفتوى وطالبوا الرفاعي بالاستقالة.

وكانت ســورية تنظر بريبة وحذر إلى ما يجري في لبنان، وبخاصة بعد أن تركتها مصر السادات، واختارت حلَّ مشاكلها مع «العزيز هنري» من دون تنسيق مع سورية. وبعد أن وجدت صعوبة في وضع منظمة التحرير برئاسة عرفات في بيت الطاعة والاطمئنان إلى تمردها، كما خافت إن اشتدَّ الخناق على المسيحيين أن يلجؤوا إلى العدو في فلسطين المحتلة. فكلف الأسد ثلاثة من المقربين إليه بالعمل على تهدئة الأمور في لبنان وهم: عبد الحليم خدام، وحكمت الشهابي، ومحمد الخولي.

فأوفد الأسد عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي إلى لبنان، والتقيا بمختلف المسؤولين من الطرفين، وجرى الاتفاق على استقالة حكومة نورالدين الرفاعي. وبالفعل قدم الرفاعي استقالة حكومته وقبلها الرئيس فرنجية وكلف رشيد كرامي بتشكيل الحكومة، وشكلت حكومة جديدة برئاسة كرامي في ١٩٧٥/٠٧/١.

وزار دمشق في شهر آب، ونتيجة لتلك الزيارة قامت «إسرائيل» باعتداءات جديدة. وكذلك تأزم الوضع في زحلة وطرابلس. وعُيِّن العماد حنا ســعيد قائداً جديداً للجيش، ولكن رئيس الوزراء كرامي وبضغط من الأحزاب والقوى الوطنية رفض زجَّ الجيش في الصراع الداخلي.

ونتيجة لازدياد تدهور الأوضاع أوفد الأسد عبد الحليم خدام واللواء حكمت الشهابي إلى لبنان في ١٩ أيلول ١٩٧٥. وبدأ الموفدان مساعيهما مع مختلف الأطراف في محاولة لوقف القتال. واتُّفق على إنشاء لجنة حوار وطني، حضر الموفدان أول اجتماعاتها، ومع ذلك لم يلبث الوضع أن انتكس من جديد.

وتتابعت زيارات خدام كلما تأزم الوضع، وتتابعت فترات الهدوء تليها صدامات جديدة نتيجة أعمال خطف أو اغتيال. ونشطت الاتصالات العربية والمساعي لتطويق الحوادث التي بدا أنها لم تفلت نهائيّاً من السيطرة. وكان قد أبلغ القادة: السادات، والأسد، والملك خالد بن عبد العزيز، الرئيس فرنجية حرصهم على سيادة لبنان، وفي الوقت ذاته على المقاومة الفلسطينية[1].

كما بذل رشيد كرامي جهوداً جبّارة مع جميع الأطراف لإيجاد حلٍّ للأزمة التي كانت تتفاقم يوماً بعد يوم، ولكن يبدو أن سياسة كيسنغر التي كانت تتقدم بخطى ثابتة نحو توقيع اتفاقية سيناء الثانية، وخبرته الواسعة، ومعرفته بالتركيبة اللبنانية، قدمت له أرضاً خصبة لتطوير الصراع وتأجيجه ليصبح حرباً أهلية بين مسيحيين ومسلمين، ولاريب أن عملاء مخابرات مختلفة لديهم خبرة في التخريب نشطوا للإيقاع بين اللبنانيين المؤهلين للتحارب لأسباب ذكرناها سابقاً ولا حاجة لتكرارها. ولاحظ المراقبون والمواطنون أنه كلما هدأت الاشتباكات حرَّكتها أيدٍ خفيَّة واشتعلت من جديد وبقوة أكبر من السابق.

وعلى الرغم من تطوُّر الاشتباكات، وتبادل الأطراف الخطف والقتل تابع الناس أعمالهم ولكن بحذر شديد.

وكان مكتبي في المنطقة التجارية وسط المدينة، منطقة الالتقاء بين الأحياء المسيحية والأحياء المسلمة، وعلى مقربة منه رُسم لاحقاً خط التماس. ومع ذلك تابعت كغيري الدوام المعتاد في المكتب، ولم يكن يقلقني إلا استهتار موظف عندي في تنقلاته، بينما بدأت أنا لا أتنقل وحدي، إذ كان يصرُّ صاحبا مطبعة شيوعيان أطبع فيها أن يرافقني أحدهما أو كلاهما مسلحين.

وفي السادس من كانون الأول ١٩٧٥ كنت في المنطقة الشرقية، غير بعيد كثيراً عن منطقة مكتبي، أراقب أفلاماً أصنعها في محل أرمني هناك. وعند

---

(١) الساطع، تاريخ ووثائق، م.س. ص ٣١٨.

الانتهاء أصرَّ صاحب المحل على مرافقتي إلى السيارة مع وجود موظف معي يقود بي السيارة ويرافقني، تاركاً عمله مبرراً سلوكه برغبته بالاطمئنان على سلامتي، وذلك أفضل..

وبعدما استقلينا السيارة، وتوجهنا إلى منطقتنا لاحظت ازدحاماً غير مسبوق، وتوقف السير تقريباً. وعرفنا بوجود حواجز في الطريق تعود لحزب الكتائب.

ونظرت في وجه الشاب الذي يقود بي السيارة، وأنا يومها لا أحمل الجنسية اللبنانية، بينما هو لبناني. فوجدت وجهه بلا لون، والسيارات تزمر، ومن يصدم سيارته لا يتفقدها. المهم لدى الجميع التخلص من موقف مجهول النتائج. فقلت لسائقي أنت لا تحتاط عادة، وتتهور في تنقلاتك، وها نحن أمام مشكلة صغيرة تضطرب، فإن لم تتمالك نفسك، وترسم ابتسامة على وجهك، فسيوقفنا أول حاجز. وأما إن أظهرت لا مبالاة، وتحدثت بلهجة لبنانية كلهجة هؤلاء فإنهم لن يوقفونا، وبالفعل تمكنَّا من الابتعاد عن الحواجز وتخلصنا من الازدحام عند أول مفترق. ولما وصلنا إلى مكتبنا علمنا بما كان يحصل على مقربة منا، إذ جرى قتل مئتي شخص على الهوية مسلمين لبنانيين وفلسطينيين وسوريين من دون ذنب سوى أنهم كانوا يمرون من منطقة بين المرفأ ومركز حزب الكتائب، وسمي ذلك اليوم «السبت الأسود».

السبت الأسود

في الخامس من كانون الأول سنة ١٩٧٥، وفي فترة هدوء نسبية اختفى أربعة من مقاتلي حزب الكتائب، فبدأ الكتائبيون عمليات خطف مضادة. وفي اليوم التالي عثر على جثث المخطوفين الأربعة في منطقة الفنار من ضواحي بيروت الشرقية المسيحية، ولم يعرف الخاطفون ولا القاتلون، ومع ذلك كانت ردَّة فعل الكتائبيين جنوناً ممنهجاً. فبدؤوا بقتل المخطوفين عندهم، ثم انتشروا في محيط مركز الحزب والمرفأ يوقفون المارين بالصدفة فيقتلون كلَّ مسلم، وفلسطيني، ودرزي، وسوري. وبحسب اعترافات أحد مرتكبي المجازر، جوزيف سعادة، أنه قتل وحده ٧٥ شخصاً.

وقد جاء في مقال على أحد المواقع على الإنترنت قوله: «نفدت ذخيرتي خلال ثوان، فأسرعت باتجاه القيادة العامة لـ«ب.ج» (مجموعة بيار الجميل)

حيث مخزن الأسلحة. عثرت فيه على بندقية كارابين أميركية ذات العشرين طلقة، وثلاثة مماشط. انضممت إلى رينغو [اسم حركي لمقاتل كتائبي] أتهادى كالمجنون، وواصلنا التصفيات. كان الرجال متمددين في بحر من الدماء تنوس حشرجاتهم وتوسلاتهم تدريجيّاً. غادرت الزقاق وقد خيَّم عليه الصمت، وتقدمت باتجاه جادة شارل الحلو، حيث كانت بوابات جهنم مشرَّعة على مصاريعها. هي حمّى مجنونة ضربت الحي. لم نعد بشراً، حتى الذئاب كانت أرحم منا تأكيداً. كنا نصفي المسلمين، ومعظمهم عمال في المرفأ، برصاصة في الرأس، بطلقة من مسدس، أو بصلية من رشاش الكلاشينكوف. كدَّسنا الجثث في شاحنة ذات ستارة، فنقلهم مسلحون، وقذفوا بهم من فوق أحد الجسور. لقد انتصر الأكثر خبلاً بيننا. لكنني لم أشعر بأنني ارتويت لم أشعر بأي فرح، ولا أيَّة نشوة، كنت أطلق النار لأنه لم يعد يوجد أبرياء، لأنه لم تعد توجد براءة. كان جميع المسلمين مسؤولين عن مقتل ولدي»[١].

ومن ذلك اليوم المشؤوم اتخذت الحرب اللبنانية طابعاً عنيفاً جديداً، وبدأ الفرز الطائفي، كما بدأت ترتسم خطوط تماس بين المناطق.

وقد وصف أحد مثقفي حزب الكتائب وقادته الحرب وصفاً دقيقاً فقال: «صحيح أن الحرب اللبنانية مليئة بالأسرار، إنها مثل كلِّ الحروب التي لا تعرف حقائقها كاملة إلا بعد سنوات. وقد لعبت فيها ما يسمى «الديبلوماسية السريَّة» ما تلعبه عادة في كل الحروب. فتخللتها، مثل كل الحروب، اتصالات بين المتحاربين أنفسهم، بين الأعداء، إما مباشرة أو عبر الوسطاء والمحايدين. وتمَّت فيها صفقات وتسويات، ولم تخلُ طبعاً من الخيانات على أنواعها. وأيُّ حرب لم تحدث فيها مثل هذه الغرائب؟ ويقال إن الحروب تخاض أيضاً، في ميادين القتال المكشوفة، ووراء الكواليس، وفي صالونات السفارات والبعثات الدبلوماسية. ناهيك بأجهزة الاستخبارات والدعاية السياسية.

حرب لبنان أيضاً من هذا الطراز، مليئة بالغرائب، حافلة بالحقائق المرَّة التي لا يكشف عنها حرصاً على سلامة المستقبل والمصير. وثمَّة اعتبارات آنية، تتصل عادة بمجريات الحرب نفسها تقضي بإبقاء هذه الحقائق مخفيَّة. ويوم تسمح هذه

---

(١) موقع بدايات www.bidayatmag.com مقال: العنف في الحروب الأهلية: القناص والمنتقم بقلم: فواز طرابلسي (كاتب وأستاذ جامعي).

الاعتبارات وغيرها بتأريخ وقائع المأساة اللبنانية كلها، سيكون ذلك قصة تاريخية مدهشة ومذهلة. وسيكون الفصل المتعلِّق بأدوار سورية و«إسرائيل» في الأزمة اللبنانية الأكثر إثارة وغرابة[1].

ويبدو أن حبي للبنان كان يدفعني للتفكير كثيراً في أسباب أزمته، فكتبت كلمة وجدتها في أوراقي تتلاقى في نواح عدة مع ما كتبه جوزيف أبوخليل، قلت: في الأزمة اللبنانية تختلط الأمور وتضيع حكمة الحكماء، وآراء العقلاء. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل، ولا بما ستؤول إليه الأمور. أو يتبين معالم المخطط لهذه الحرب، فهي ليست طائفية بحتة لأن مسيحيين كثيرين يقاتلون في صفوف المسلمين. وليست اجتماعية لأن أغنياء وفقراء في صفوف الطرفين. وليست ثورة ضد حاكم مستبد ظالم، لأن مدَّة حكم الرئيس ستنتهي بعد فترة قصيرة.

إنها نتيجة عوامل متداخلة مختلفة كثيرة ومتشعبة، ولاريب أن مخابرات قويَّة خبيثة وقذرة تستغلها وتنميها لغايات غير واضحة المعالم. وبأسلوب إجرامي يؤدي إلى القضاء على الإنسان والقيم والممتلكات.

وهي ذات وجه طائفي من جهة لأن المسيحي يقتل المسلم على الهوية، والعكس بالعكس، في كثير من الأحيان.

وهي ذات وجه اجتماعي لأن مظاهر الحقد لدى طبقة مسحوقة بادية للعيان من التدمير المتعمد للمحلات الأنيقة، والمؤسسات الغنية من دون تحقيق فائدة في معظم الأحيان.

وهي ذات وجه سياسي وصراع يتجلى في تطاحن السياسيين والأحزاب لتحقيق مكاسب خاصة.

وعلى هذه الأرض تتصارع الأنظمة العربية والمخابرات الدولية، مستغلة الواقع المرير لوطن صغير لم يحسن أهله إدارته، ويزيد الأمور تعقيداً وجود عدد كبير من الفلسطينيين في هذا البلد، وارتباط قضيتهم بالمصالح الكبرى للدول العظمى... إلى هنا انتهى الاقتباس من الأوراق الخاصة بالحرب الأهلية اللبنانية.

---

(١) أبو خليل، جوزيف، قصة الموارنة في الحرب (سيرة ذاتية)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م ص٤١، ٤٢.

واليوم، وبعد مضي مدة طويلة على تلك الأحداث يزداد استغرابي، لأن بيير الجميل الذي كان حزبه «الكتائب» رأس حربة في تلك الحرب كان يعلن استمرار تأييده للحق الفلسطيني، وأظنه كان صادقاً في ما يقول. وأما سليمان فرنجية فالمعروف عنه أنه عروبي، وألقى في هيئة الأمم في ١٩٧٤/١١/١٤ كلمة رائعة، باسم العرب، دافع فيها عن القضية الفلسطينية دفاعاً لافتاً ربما كان له تأثير في قرارات الهيئة يومها: إذ تضمنت قراراً ينص على حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولة مستقلة خاصة به، وقراراً بقبول منظمة التحرير الفلسطينية بصفة مراقب في الهيئة.

وأما ياسر عرفات فقد كان حريصاً على عدم الدخول في الزواريب اللبنانية، وعقد اجتماعات كثيرة مع زعماء الموارنة، وبقي على اتصالات معهم حتى في ذروة الأحداث، لأن ما كان يهمه ترفُّع القضية الفلسطينية عن الأحداث التي لا تفيدها ولا تخدمها.

ومع ذلك كله كان القتال يعود إلى الاشتعال بقوة أكثر بعد كل تهدئة، ما يجعل أي مراقب يعترف بقدرة القوة الخفية التي تحركها، وبالأرض الصالحة لاشتعالها، والنفوس المؤهلة لخوضها، وهنا مكمن الخطر الذي يحتاج إلى دراسة معمقة، للتوصل إلى حلول تحول دون تكرار المأساة.

وكما كان مكتبي على خط التماس في المنطقة التجارية، كذلك أصبح مستودع الكتب على خط تماس آخر في منطقة رأس النبع... وتوقفت الأعمال بشكل عام، وهاجر معظم سكان لبنان وبقيت وحدي بعد أن سافرت العائلة إلى دمشق، ولم يبق في البناية سوى عدد قليل من السكان. نمضي معظم أوقاتنا على درج البناية.

معارك الفنادق

عندما حدثت مذابح السبت الأسود، كانت القوات المسيحية تسيطر على منطقة المرفأ، ولها وجود قوي في منطقة الفنادق وتخوض معارك قاسية للاحتفاظ بها.

ومع ازدياد حدَّة القتال توقفت عن الدوام في المكتب، واقتصر ذهابي إليه للاطمئنان على موجوداته، ونقل ما يمكن نقله من الأشياء المهمة، إذ أصبح الطريق بالسيارة إليه مهدداً بقناص، ففتح المقاتلون في جدران المنازل المهجورة مسارب توصل إلى بناية المكتب بعيداً عن مراقبة القناص.

وأذكر أن داراً كويتية كانت أرسلت إليَّ ديوان شعر لطبعه، مكتوباً بخط اليد في دفتر، فحملته معي في إحدى المرات واحتفظت به في البيت، وتبيَّن لاحقاً أن الشـاعر لا يملك نسـخة عن القصائد التي يحويها، فلما علم بنجاة ديوانه، احتفل بذلك لأن الشاعر لا يستطيع استعادة كل ما كتب من قصائد.

وبدأ السوريون واللبنانيون يغادرون البلد، وكلما غادر صديق كان يترك مفتاح بيته عندي، حتـى بلغ عدد المفاتيح معي أحدعشـر مفتاحـاً، أعانني الله على المحافظة عليها، وإخلاء ما احتل منها سـريعاً. ولكل حادثة إخلاء قصة طريفة، وكثيراً ما كنت أتمشـى وعبد الكريم النحلاوي، ونقف أحياناً نراقب تصرفات المقاتلين، فنلاحظ أن معظمهم لا خبرة له في القتال، وانخرطوا فيه بهسـتيريا جماعية وعواطف غير منضبطة. وظهر على المسـرح السني فصيل اشتهر أثناء الحرب باسم «المرابطون».

ومن طرائف أولئك المقاتلين ما لاحظته أثناء تفقد مكتبي في إحدى المرات أن قذيفة نزلت على شـباكه إلى الداخـل، وانفجرت على لـوح رخام يغطي «الشوفاج». فوقفت حائراً أفكر في مصدر هذه القذيفة، التي كان من الواضح لكل عسكري أنها قذيفة هاون. إذ من جهة الغرب حيث يطل الشباك مقاتلون مسلمون لا يمكن أن يقصفوا البناء الذي يحميهم ويـأوون إليه، وهناك أبنية تحول دون وصول قذيفة بالخطأ من بعيد. ومن جهة الشـرق حيث المقاتلون المسيحيون يمكن القصف بالهاون، ولكن قذيفة الهاون تنزل عامودية، ويفترض ألا تدخل من الشباك بل تنزل على الأرض.

وبقيت الصورة في ذهني حتى التقيت يوماً بعدد من المقاتلين في تلك المنطقة، فقلت لهم إن هذه القذيفة التـي أصابت مكتبي يحيرني مصدرها! فنظر بعضهم إلى بعض ضاحكين، وقال أحدهـم: أردنا الرمي بالهاون على تجمعات المقاتلين خلف البناية، فخرجـت القذيفة إلى أقصى مدى لها في العلو، ثم رجعت باتجاهنا تهتز وتتأرجح، فدخلت من النافذة وانفجرت، ولو جاءت علينا لقتلتنا.

وهكذا وضحت الصورة لديَّ، فهم لا يحسنون استعمال الهاون، فأخطؤوا في مكان نصبه، وفـي زاوية الرمي. وهكـذا كان معظم المقاتلين باسـتثناء الفلسطينيين المدربين.

وكما اشتهر في الحرب اللبنانية السبت الأسود، اشتهرت حرب الفنادق. ففي بيروت في منطقة عين المريسة حيث تكثر الفنادق، فندق يدعى «هوليداي إن» كان قد أنشئ حديثاً، ويتألف من ثلاثين طابقاً، ما يجعل المسيطر عليه مسيطراً بالنار على مناطق واسعة من بيروت.

وكان يدافع عن منطقة الفنادق الجيش اللبناني، والكتائب، ونمور الأحرار، ويهاجمها قوات الحركة الوطنية بمختلف تنظيماتها وأحزابها، ولا سيَّما المرابطون، وبعض الفصائل الفلسطينية.

وقد قاتل المدافعون ببسالة وشراسة، كما استعمل المهاجمون مختلف وسائل القتال والحيل. واستعملوا مختلف الأسلحة من قذائف خارقة وحارقة وغيرها. وكما استمات المدافعون استشرس المهاجمون، حتى تمكنت إحدى الفصائل الفلسطينية من فتح ثغرات في أحد جدران الفندق، وتسرب منها المقاتلون وخاضوا قتالاً عنيفاً من غرفة إلى أخرى، حتى سيطرت قوات الحركة الوطنية على الفندق بكامله، وألقت بآخر قناص من أعلى الفندق، وانتهت معركة الفنادق في آذار سنة ١٩٧٦ وكانت قد بدأت في تشرين الأول ١٩٧٥.

وهكذا بدأت خطوط التماس تأخذ شكلها النهائي، وينتقل كل مواطن إلى منطقة طائفته، وتطورت حرب القناصين الذين يرمون كل هدف يتحرك في المنطقة المواجهة له، من دون معرفة هوية الهدف.

وكما انقسمت بيروت، انقسمت بقية المناطق، فلم يعد باستطاعة ابن طرابلس المجيء إلى بيروت على الطريق الدولية المعتادة، لأنه يمرُّ في المنطقة الشرقية.

وقطعت الطريق الدولية بين بيروت والبقاع لأن المعارك تدور في مناطق الكحالة نزولاً حتى بيروت، فأصبح على الراغب بالذهاب إلى البقاع أو دمشق أن يسلك طريق صيدا جنوباً، ثم يتجه شرقاً إلى مرجعيون، ومنها يعود إلى الطريق الدولية.

ولم يعد باستطاعتي التحرك إلا ضمن مربع صغير. وذهبت يوماً مع جار لي سوري (رضوان دعبول) بسيارته إلى سوق في صبرا لشراء الخضار والفواكه، إذ بقي هذا السوق يعمل. وهو سوق قريب من مخيم صبرا للاجئين الفلسطينيين. وبعدما اشترينا ما يلزمنا، وعدنا إلى السيارة، فوجئنا بمسلحَين يوجهان بندقيتيهما

إلينا، ويقودانـنـا مكرهين إلى مكتب منظمة الصاعقة. ولم نعلم سـبب اختطافنا. وطلب المسلحون هناك منا الانتظار. وبعد مضي وقت رفعت صوتي بالموجودين قائلاً: نحن سوريون، وأهلنا يعرفون إلى أين ذهبنا، وأنتم المسؤولون عن المنطقة، فإما أن تتركونا قبل الإبلاغ عن خطفنا، أو تسمحوا لي بالاتصال مع رئيس المنظمة «زهير محسن». فقال أحد الموجودين مستفهماً: أنتم سوريون؟ قلنا: نعم. فذهب، وبعد قليل جاء ضابط كرر السـؤال ذاته: أنتم سوريون؟ فتركت الإجابة لصديقي الذي أجابه ضاحكاً: نعم، ومن الميدان كمان. فطلب رؤية الهويات. فسارع صديقي إلى إعطائه هويته، بينما بقيت يدي في جيبي تبحث عن الهوية، وتأخرت متعمداً خوفاً من أن يعرف الاسم، إذ كان ما زال الحكم عليَّ في سورية قائماً. فلم ينتظر، وقال: اذهبا كان لدينا اشتباه بالسـيارة. وكانت السيارة أميركية جديدة راقت لهم. وكانت السيارات معرضة للسرقة في أوقات السلم، فما بالك في أثناء الحرب؟!

وعندما سيطرت مجموعات الحركة الوطنية على منطقة الأسواق ذهبت لتفقد المكتب، فوجدت الكتب ملقاة على الأرض، فالكتاب صعب البيع، ولا أهمية له عندهم، فاكتفوا بسـرقة الرفوف، والكراسي، وتركوا الطاولات لكبر حجمها وصعوبة حملها..

ومع كل ما حصل تابع العقلاء من الطرفين، وعلى رأسـهم رشيد كرامي، محاولات تهدئة الأوضاع، فكانوا كلمـا اتفقوا على وقف إطلاق النار، لا تلبث الحرب أن تشتعل من جديد كما ذكرنا.

وفي آذار/ مارس ١٩٧٦، وبعد انتهاء حرب الفنادق، وسيطرة قوات الحركة الوطنية المختلفة على الأسـواق فلتـت الأوضاع، وكثيـراً ما كانت المنظمات المختلفة تتقاتل على الغنائم والسرقات، وكان البنك البريطاني للشرق الأوسط أحد الأهداف المهمة إذ كان فيه غرفة محكمة الإغلاق بالحديد المصفح تحوي صناديق أمانة لمجوهرات أثرياء لبنان. فلم يستطع الفصيل الذي سيطر على البنك فتح الغرفة بمختلف الوسائل التي يملكها، حتى قيل إنه استعان بخبير أجنبي... والمهم في الأمر أن المنطقة بدت وكأن جراداً غزاها، وزلزالاً أصابها، فخلت من كل ذي قيمة. وسنتطرق إلى تفصيل ما حدث سنة ١٩٧٦ لاحقاً.

وأذكر في ذلك الوقت أن صديقاً اتصل بي ليخبرني أنه وجد في مدخل بناية مكاتبنا أفلاماً (ميكروفيلم) مبعثرة، قد تكون لي، وأن البناية محتلة من قبل منظمة

فلســطينية. ذهبت إلى المكتب، فوجدت على مدخل البناية شريط أحد الأفلام، فتفحصته، فإذا هو جزء من مخطوطة كتاب نادر عن تاريخ المدينة المنورة لمؤرخ قديم اسمه عمر بن شبَّة. والمخطوطة قديمة ونادرة، ومحفوظة في مكتبة المدينة المنورة ويمنع تصويرها، ولا أعلم كيف حصل أحدهم على هذه الصورة وباعني إياها، وبدأت في تحقيقها، ولكن الحرب أوقفتني عن متابعة العمل.

وفي مدخل البناية كان يجلس ضابط برتبة مــلازم، لا أذكر المنظمة التي ينتمي إليها. فسلمت عليه وعرفته بنفسي، وطلبت منه مرافقتي، فاعتذر بداية، ثم وافق. ولما أصبحنا في المكتب، أخذت أقذف أمامه بالكتب التي نشرتها عن القضية الفلسطينية، والمبعثرة في المكتب، وأســاله بحدَّة: هل تصرفكم بهذا الشــكل معقول؟ فلم يزد على قوله: صحتك بالدنيا. قلت: طيِّب بعثرة الكتب لسرقة الرفوف أمر مفهوم، ولكن لماذا بعثرة الأفلام ورميها على مدخل المكتب ودرج البناية؟ فأجاب ضاحكاً: ظنوها «أفلام سيكس»، فلما لم يجدوها كذلك رموها. فلم أجد ما أقوله ســوى: آمل بوجودك هنا ألا يقضى على ما تبقى في المكتب. ثم انصرفت لجمع شرائط الأفلام. والغريب في الأمر أنني بعد جمعها ومراجعتها، وجدتها كاملة. وبعتها لاحقاً، ولم تتح لي فرصة تحقيق الكتاب.

ورجعت بعد أيام، فلم أجد أحداً من عناصر المنظمة التي كانت في البناية، والتقيت بنقيب الناشــرين يومهــا يحيى الخليــل، فوقفنا نتبــادل المعلومات والأحاديث، وإذا بناطور البناية، وهو من أبناء المنطقة، يتقدم نحونا، فسألته بعد السلام كيف تجري سرقات بوجوده، وهو شيخ شباب في المنطقة؟ فأجابني أنه ترك العمل لأن أصحاب البناية توقفوا عن دفع راتبه، فسألته عن الراتب فأجاب أربعمئة ليرة لبنانية، فعرضت عليه أن أدفع له راتبه ويعود لحراسة البناية، فوافق. ولما ابتعدنا عنــه قال لي يحيى: ألا تعلم أنه رئيــس الحرامية في المنطقة هنا؟ فأجبته: أعلم وبشراء رئيس الحرامية ستتوقف السرقات، فهو الوحيد الذي يستطيع ضبطهم. وهذا ما حصل. وجرى تأمين ما بقي مــن موجودات إلى حين هدوء الأوضاع ونقل الصالح منها.

وهكذا مضى العام ١٩٧٥ هبَّة باردة وهبَّة ســاخنة كما يقول المثل الشعبي، ومضت أعياد آخر السنة في هدوء نسبي بعد الاتفاق على تهدئة الأحوال، وأسهم لقاء ياسر عرفات بشمعون، والضغط السوري القوي في تهدئة الحرب.

أهم أحداث سنة ١٩٧٥

سنذكر في ما يأتي أهم الأحداث في العالم العربي، وبعض أحداث العالم الكبرى، بعد أن فصَّلنا ما كان يحدث في لبنان وظروف الحياة فيه.

ففي ١٩٧٥/٠١/١٩ زار الملك فيصل دمشق ـ كما ذكرنا سابقاً ـ، فاستقبل استقبالاً رسميّاً بترحيب كبير، كما كان الاستقبال الشعبي أشد حرارة لمواقفه العربية والإسلامية الجريئة.

وكانت سورية منذ تسلم الأسد السلطة سنة ١٩٧٠ تعمل جاهدة على استعادة علاقتها الطيبة أو الطبيعية مع مختلف الدول، وبخاصة السعودية، بعدما سادها النفور والقطيعة مع بعض الدول العربية، ومنها السعودية.

وتناولت المباحثات سبل تعزيز العلاقات بين البلدين وسبل تطبيق مقررات مؤتمر الرباط الشهير.

وفي ٠٢/١٢ أعلن تأسيس جمهورية قبرصية تركية في شمالي قبرص، في المنطقة التي يقطنها الأتراك.

وفي ٠٣/٠٥ انقسمت الحركة الكردية في العراق إلى قسمين رئيسين: الأول بقيادة مسعود البرزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني، ومنطقة نفوذه الكبرى في أربيل. والثاني بقيادة جلال الطالباني رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني، ومنطقة نفوذه المهمة مدينة السليمانية.

وجرى في ٠٣/٠٦ توقيع اتفاق بين العراق وإيران في زمن الشاه لترسيم الحدود بين البلدين في شط العرب.

وفي احتفالات ٨ آذار أعلن حافظ الأسد ضرورة قيام تعاون استراتيجي عضوي بين القيادتين السورية والفلسطينية، وفي اليوم التالي تلقى برقية من ياسر عرفات يرحب فيها بقيام قيادة سياسية وعسكرية واحدة بين الطرفين.

وذهل العالم في ٠٣/٢٣ بإقدام فيصل بن مساعد على اغتيال عمه الملك فيصل برصاصات من مسدسه أثناء تهنئة بعيد المملكة الوطني.

وزار السادات طهران في ٠٣/٢٥، وأعلن من هناك بداية صداقة وتعاون مع شاه إيران. بعد أن كانت العلاقات سيئة بين البلدين في زمن حكم عبد الناصر.

وفي التاريخ ذاته زار تشاوشيسكو، رئيس رومانيا، سورية.

كما حمـل يوم ٠٤/١٠ نبأ سـقوط مدينة سـايغون في فيتنـام الجنوبية بيد الفيتناميين الشماليين.

وفي ٠٤/٢٤ عيَّن السادات حسني مبارك نائباً له، وهو كان قائد سلاح الطيران في حرب ١٩٧٣.

وفي ٠٤/٢٩ قام شاه إيران بزيارة الرياض، وأجرى مباحثات مثمرة مع الملك خالد، وربما أسهمت محاولات الشاه إنشـاء علاقات تعاون مع دول المنطقة، وإصلاحاته الداخلية بتركيز العمل على إزاحته، لأنه من غير المقبول لدى الدول الكبرى المتحكمة بالعالم قيام اتحادات أو تعـاون بين الدول العربية، والدول المجاورة. والمطلوب استمرار النزاع والحروب الإقليمية.

وفي ٠٤/٣٠ انتهت حرب فيتنام. وسيطر شـيوعيو لاغوس على السلطة في الهند الصينية.

وفي ٠٥/٢٠ زار رئيس وزراء الأردن زيد الرفاعي سـورية وأجرى مع الأسد مباحثات سرية، وشهد العام ١٩٧٥ عدة زيارات متبادلة، وأهمها زيارة الأسد الأردن في ٠٦/١٠ ووقع في ٠٦/١٢ اتفاقاً مع الملك حسين يقضي بإقامة لجنة عليا للتنسيق بين البلدين، ثم أقاما مجلس قيادة عليا.

وفي ٠٧/٠٥ أعلنت القاهرة فتح قناة السويس، وساعدت الولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا، في تأهيلها وتنظيفها مما حلَّ بها في الحرب مع «إسرائيل».

ووقعت مصر مع «إسـرائيل» اتفاقية فك الاشـتباك الثانية فـي ٠٩/٠١ بعد مفاوضات شاقة رعاها كيسنغر، وكان لها دور كبير في حرب لبنان. وقد تضمنت السماح لـ«إسرائيل» باسـتعمال قناة السويس، وشـكَّل ذلك ضربة قوية لنظام مقاطعة «إسرائيل».

وقد اعترف السـادات علناً في ٠٩/١٠ أن هدف القوات المصرية من حرب تشرين سـنة ١٩٧٣، كان تحرير شـريحة من الأرض على الضفة الشرقية بعمق /١٠كلم/ عشـرة كيلومترات لاغير، وقد تحدثنا بالتفصيل عـن هذه النقطة عند الحديث عن حرب تشرين ١٩٧٣.

وفي ٠٩/٢٠ أعرب السوفييت عن خشيتهم من أن يؤدي الوجود السوري في لبنان إلى اندلاع حرب مع «إسرائيل».

وكانت سورية قد أدخلت قوات الصاعقة، التابعة لها، وجيش التحرير الفلسطيني إلى لبنان، لكبح جماح القوات المشتركة والفصائل الفلسطينية في القتال.

وفي ١٢/٢٢، وأثناء اجتماع وفود «أوبك» في فيينا، احتجزت مجموعة مسلحة سبعين شخصاً في مقر «أوبك»، بينهم أحد عشر وزيراً، ضمنهم أحمد زكي اليماني، ثم أفرج عنهم مقابل فدية كبيرة. وكانت العملية بأوامر وترتيب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأشرف على تنظيمها وديع حداد وشارك فيها الفنزويلي المتعاون مع المنظمة الذي اشتهر بكثير من العمليات، المدعو «كارلوس» (إلييتش راميريز سانشيز)، وأنيس النقاش.

عودة إلى حروب لبنان

لم يكن الهدوء النسبي الذي ساد لبنان في أواخر العام ١٩٧٥ إلا استراحة محارب، فقد استمر تدفق الأسلحة على الأطراف كافة، وتوضحت صورة الانقسامات. إذ كان هناك فريق يتمثل في المسيحيين المتطرفين، وعلى رأسهم كميل شمعون وبيير الجميل، وهم يتمسكون بالدستور اللبناني وصلاحيات رئيس الجمهورية، وميزات الموارنة.

وفي المقابل فريق يتمثل بالأحزاب اليسارية، وما سمي يومها بالحركة الوطنية، مدعومين من المنظمات الفلسطينية اليسارية ويتزعمه كمال جنبلاط، ويسعى إلى القضاء على النفوذ الماروني بشكل نهائي وكامل، وتغيير نظام لبنان السياسي من أصله، معتقداً أن الفرصة سانحة وإن لم تستغل فلن تعود.

وبرز بين الفريقين فريق معتدل كان يسعى إلى تهدئة الحرب، وتعديل النظام بالتراضي بين الأطراف، وأبرز هؤلاء رشيد كرامي، رئيس الوزراء يومها، والشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية.

على هذه الصورة اختتم العام ١٩٧٥، وما أن انتهت فترة الأعياد حتى اشتعلت الجبهات من جديد، وكان أبرزها قصف شديد لمدينة زحلة، وعمَّت الاشتباكات مختلف مناطق لبنان، وحتى ذلك التاريخ كان الجيش موحداً، وتدخُّله لم يتعدَّ

غضَّ النظر أو المســاعدة من بعض عناصره على وصول الأسلحة إلى الجانب المسيحي، ولكن الانقســام لم يلبث أن وصل إلى الجيش، فأعلن الملازم أول أحمد الخطيب تشـكيل جيش لبنان العربي في ٢١ كانون الثاني ســنة ١٩٧٦ هو ومجموعة من العسكريين. وانضم إليهم عدد من ضباط الجيش ورتبائه وجنوده، وبدعم من منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة عرفات في بادئ الأمر. وهدد العقيد محمود طي أبوضرغم قائد فوج المغاوير بالتحرك من ثكنة الفياضية باتجاه القصر الجمهوري وإخراج الرئيس منه، بعد أن رفض دعوة زعماء المســلمين وبعض المسيحيين له بالاستقالة، ولكنه لم يتحرك.

وكما انقسم لبنان، انقسم العالم العربي، فدعا السادات مع دول مناصرة له إلى تعريب القضية اللبنانية، وأصرَّت ســورية على المحافظة على وحدة لبنان واســتقلاله وعدم تعريب قضيته، أو تدويلها، وكانت تتدخل عسكريّاً وسياسيّاً. بينما حذرت «إسرائيل» من تدخُّل سورية في لبنان وعارضته هي والولايات المتحدة.

وأقتبس من طلاس تصويره للواقع كما يراه في ذلك التاريخ، يقول: «استمرت ظاهرة الاقتتال التي اقترنت بنشوب الحرائق وتركزت في ضواحي بيروت حيث بلغ عدد القتلى يوم ٩ كانون الثاني حوالي خمســين قتيلاً، كما تفاقمت مشكلة الحصار التمويني على مخيم تل الزعتر والضاحية الشرقية لبيروت، وقد حاول الســادات أن يدخل من هذه الثغرة فأعطى أوامره بإرســال كميــات من المؤن والأدوية والمعدات الطبية إلى منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان.

في ١٤ كانون الثانــي ١٩٧٦، اجتمع مجلس الوزراء الســعودي وأصدر بياناً تضمن قلق المملكة من تدهور الأوضاع في لبنان، وحذا حذوه مجلس الوزراء القطري. كما رأى محمود رياض أمين الجامعة العربية أن الوضع في لبنان يتطلب عقد مؤتمر عربي فوراً، وفي هذا اليوم عقد مجلس الوزراء اللبناني جلسة وقرر التمديد لمجلس النواب سنة لتفادي خطر الفراغ الدستوري.

تشاور الرئيس فرنجية هاتفيّاً مع الرئيس الأسد في الوضع فقرر الرئيس الأسد إيفاد اللواء حكمت الشهابي، وقبل وصوله يوم ١٦ كانون الثاني كان الوضع قد انهار في كافة المناطق. إذ تم اجتياح بلدتــي الدامور والجية، وهوجمت مدينة زحلة، وصدَّ الأهالي الهجوم، وأغلق مطار بيروت، وأمطرت أحياؤها بالقنابل،

واجتمعت القمة الإسلامية في دار مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد في عرمون، وتدارست الأوضاع المتردية، ورأت أن السبيل الوحيد للتخفيف من حدَّة التوتر هو فك الحصار التمويني والعسكري عن تل الزعتر والدامور وسائر المناطق، وإخلاء مخيم ضبيَّة من المعتدين، ووقف القتال، وانسحاب المسلحين. ولم يتمكن اللواء حكمت الشهابي من الوصول إلى مكان اجتماع القمة الإسلامية، فاتصل هاتفيّاً مع كافة الفعاليات وطلب منهم تلبية مطلب الرئيس حافظ الأسد بوقف إطلاق النار، وغادر عائداً إلى دمشق.

أعلن رئيس الحكومة رشيد كرامي وقف إطلاق النار ليلة ١٧ كانون الثاني ١٩٧٦، بعد أن وافقت عليه جميع الأطراف، ولكن هذا الاتفاق لم يصمد يوماً واحداً، الأمر الذي دفع رشيد كرامي لتقديم استقالته ليلة ١٨ كانون الثاني قائلاً:

إن الدولة كسلطة، كإمكانيات، كمؤسسات لم يعد لها من فاعلية تجعلني أستطيع بواسطتها أن أقوم بما يفرضه الواجب عليّ»[1].

وبدا واضحاً أن من أهداف الجبهة اللبنانية، التي تضمُّ القوى المسيحية، ويرأسها كميل شمعون، تصفية المخيمات الفلسطينية في المناطق المسيحية كمخيم الكرنتينا، وضبية، وتل الزعتر، ولمّا ضيّقت على المقيمين في المخيمات، وحاصرتهم، وارتكبت مجازر في صفوفهم، كان ردُّ فعل الفلسطينيين محاصرة القرى المسيحية في مناطق المسلمين والدروز. وكانت الدامور من ضحايا تلك السياسة، فقد نالها من الحصار والتدمير والتهجير ما نال المخيمات الفلسطينية.

وكان كميل شمعون يقيم في قصر فخم على شاطئ البحر في منطقة السعديات على طريق صيدا، بين الجية والدامور. فلجأ إليه الناجون من المحاربين ومن غير المحاربين من منطقة الدامور، وشمعون يومها وزير للداخلية، فطلب نجدة من الجيش اللبناني ومن نمور الأحرار، الميليشيا التابعة له، ومن الكتائب. وجرت مفاوضات بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين اتفق فيها على وقف إطلاق النار وإخلاء المحاصرين في القصر. فغادره شمعون في ٢٠ كانون الثاني بطوافة عسكرية إلى القصر الجمهوري في بعبدا، حيث أقام مؤقتاً،

---

(١) طلاس، مصطفى، مرآة حياتي، م.س.، ص ١١٣٤، ١١٣٥.

بينما غادر الباقون في اليوم التالي بحراً إلى ميناء جونية. وبعد فراغ القصر دخله المهاجمون ونهبوا ما فيه وأحرقوه.

واستمرت الحال على هذا المنوال، وتوقفت الأعمال، واقتصر تحرك السكان في مناطقهم، وعلى مقربة من بيوتهم، في فترات الهدوء التي تلي غالباً بيانات اللجنة الأمنية التي شكلت لمتابعة وقف إطلاق النار وعلاج الحالات الطارئة، وأسهمت سورية في تأليفها، وكانت هذه اللجنة تعمل ليل نهار على اتفاقات بين الأطراف المتقاتلة التي لا تدوم طويلاً.

ولهذا أصبحت أمضي معظم الوقت في البيت، وكان يتردد عليَّ بعض الأصدقاء، وربما أمضيت ساعات على الدرج مع الجيران تجنباً للقصف وللرصاص الطائش، كما كنت أزور بعض الأصدقاء في أوقات الهدوء.

وأذكر أنني ذهبت مرة برفقة صديق صحافي لتفقد منزل أحد الأصدقاء في بناية يعقوبيان، وهي بناية كبيرة شهيرة في منطقة رأس بيروت. ولما فتحت الباب فوجئت بشاب بالألبسة الداخلية يقفز إلى مواجهتي مصوباً كلاشينكوف إلى صدري.. فقلت له: أنا مسؤول عن هذه الشقة فمن أسكنك هنا؟ فأعطاني اسم الجهة التي أسكنته، وخفض فوهة بندقيته. فقلت له: أنت مسؤول عن محتويات الشقة بينما أتصل أنا بالمسؤولين لتأمين سكن لك غيرها. والآن سأكتفي بأخذ هذه السجادة. وحملت سجادة قد تغري بسرقتها. وخرجت مستغرباً سذاجة ذلك المقاتل، فقال صاحبي: أظنه فهم من طريقة كلامك معه أنك مسؤول...

وكانت المنطقة تحت سيطرة المرابطين، وعرفت أن خ. شهاب مسؤول هناك، وأعرفه شاباً خلوقاً، كان يعمل في دار نشر لصديق لي وجار في المكتب، فاتصلت به هاتفيّاً، وسألته عن كيفية إخلاء الشقة، فاستمهلني إلى اليوم التالي لتأمين شقة للقاطن فيها، وأنه يمكنني استلامها بعد الظهر.

ولما ذهبت برفقة صديقي أيضاً سلمني المفتاح الذي كان بحوزته. وكانت المفاجأة في أن زوجته طلبت أخذ مكنسة أعجبتها وسطل وممسحة أرض لا غير. فقلت لها خذي ما تشائين وشعرت بداخلي بغصة وحزن من تعاسة جزء كبير من شعبنا وطيبته، ولعنت الذين أوصلوه إلى هذه الحالة.. ولم أواجه احتلال أي شقة أو منزل آخر إلا بعد مدة طويلة. وسأتحدث عن ذلك في مكانه من تسلسله الزمني.

وعلى الرغم من تردي الأوضاع، وعدم قدرة الدولة على ضبط الأمور، وظهور زعامات مناطقية وقبضايات يجمعون الخوات والأتاوات، ويستحلون السرقات، لم ييأس الزعماء اللبنانيون، ولا الوسطاء السوريون، فصدر عن مجلس الوزراء اللبناني في ١٩٧٦/٠٢/١٠ وثيقة الإصلاح السياسي[١] الذي كان يطالب به قادة الطوائف المسلحة.

ومساء السبت في ١٤ شباط تلا رئيس الجمهورية، سليمان فرنجية، نص الوثيقة الدستورية التي اتفق عليها بين الأطراف بوساطة سورية، وتضمنت ١٧ بنداً، وجاء فيها أن لبنان بلد عربي سيِّد مستقل، وأكدت على العرف القائم بتوزيع الرئاسات الثلاث، فيكون رئيس الجمهورية مارونيّاً، ورئيس مجلس النواب شيعيّاً، ورئيس الوزراء سنيّاً. وأشارت الوثيقة كذلك إلى نقاط إصلاحية مثل انتخاب رئيس الحكومة من مجلس النواب، والمناصفة في مجلس النواب بين المقاعد النيابية، نصف للمسلمين بطوائفهم، ونصف للمسيحيين بطوائفهم، وضمان اتفاق القاهرة[٢].

انقلاب الأحدب

ومع ذلك، وكأن الشيطان كان يسكن لبنان، فلم تلبث حتى تعكرت الأجواء، وفوجئ اللبنانيون مساء ١٩٧٦/٠٣/١١، في موعد نشرة الأخبار بالعميد قائد موقع بيروت العسكري عزيز الأحدب يظهر على شاشة التلفزيون ويتلو البلاغ رقم ١ وجاء فيه: «إنقاذاً لوحدة الجيش وإعادة اللحمة إلى العسكريين، وإنقاذاً للوضع المتدهور في البلاد، ولما كانت تحذيراتي المتواصلة قد ذهبت أدراج الرياح، وحفاظاً على المصلحة اللبنانية العليا، وإعادة اللحمة إلى الشعب اللبناني الكريم، وبوحي من ضميري وأصالتي العسكرية، وانطلاقاً من مسؤوليتي أمام الله والتاريخ، أقرر ما يلي:

١ ـ أطلب من الحكومة اللبنانية أن تقدم استقالتها خلال ٢٤ ساعة وإلا اعتبرت بحكم المستقيلة.

---

(١) الساطع، أكرم، تاريخ ووثائق، م.س. ص ٣٢٣.

(٢) طلاس، مصطفى، مرآة حياتي، م.س. ص ١١٣٨، ١١٣٩.

٢ ـ أطلب من فخامة رئيس الجمهوريـــة، محافظة على الوحدة اللبنانية، أن يتمثل بزميله الأسبق بشارة الخوري ويقدم استقالته من سدَّة الرئاسة، وإلا اعتبر بحكم المستقيل.

٣ ـ أطلب مـــن جميع القطاعـــات المدنيـــة والعســـكرية أن تؤيد حركتي الإصلاحية، وأن تلتزم بالهدوء والسكينة تحت طائلة المسؤولية.

٤ ـ أعلن حالة الطوارئ في البلاد، وأمنـــع التجول في منطقة بيروت حتى إشعار آخر.

٥ ـ أدعو مجلس النواب خلال سبعة أيام من تاريخ هذا القرار، إلى انتخاب رئيس جديد للبلاد.

٦ ـ أدعو فخامة رئيس الجمهورية الجديد إلى تشـــكيل حكومة جديدة فور انتخابه.

٧ ـ أطلب إلى المديرين العامين تأمين الأعمال في وزاراتهم كالمعتاد.

٨ ـ أطلب إلى جميع القوات المســـلحة أن تطلق النار على كل من تحدثه نفسه القيام بأعمال الشغب أو السلب، تحت طائلة المسؤولية.

٩ ـ أؤيد ما جاء في نداء العماد قائد الجيش الموجه إلى العسكريين بتاريخ ١٩٧٦/٠٣/١٠[1].

١٠ ـ أؤيد المبادرة الســـورية الأخوية بكل قواي لإخـــراج البلاد من الأزمة الكارثة التي تتخبط فيها الفئات المتصارعة.

١١ ـ أعلن الالتزام بالاتفاقات السابقة المعقودة بين السلطة اللبنانية وإخواننا الفلسطينيين.

١٢ ـ أعلن بأن الجيش ســـيلتزم بحماية فخامة الرئيس سليمان فرنجية مدى الحياة.

---

(١) كان قد صدر في ٧٦/٠٣/١٠ بيان من قيادة الجيش يقول إن ضباطاً من مختلف الطوائف قرروا الوقوف صفّاً واحداً، مطالبين بصيانة وحدة الجيش، ووحدة البلاد، وضرورة إيجاد الحل السريع والمناسب للأزمة التي تعصف بالبلاد.

١٣ ـ أعلن منذ الآن أنني لست طامعاً بالحكم، ولا أؤمن بالحكم العسكري إلا كوسيلة لإنقاذ حكم متدهور. لذلك قررت الاحتفاظ بمركزي الطبيعي كقائد لمنطقة بيروت، وسأسلم أمانة الحكم إلى أصحابها فور انتخاب الرئيس الجديد. والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم الوكيل.

بيروت في ١٩٧٦/٠٣/١١

العميد الأول الركن عزيز الأحدب

قائد منطقة بيروت والحاكم العسكري المؤقت

ثم تتالت البلاغات العسكرية تشبهاً بالانقلابات، ولكن هذا الانقلاب الذي سمي تجاوزاً انقلاباً، لم يكن كالانقلابات.

وينطبق على انقلاب الأحدب قول الشاعر:

أوردها سعد وسعد مشتمل — ما هكذا يا سعد تورد الإبل

ما جعل الناس يطلقون عليه «انقلاب تلفزيوني»، ويظهر ذلك في الشكل والمضمون.

فقائد الانقلاب ظهر على شاشة التلفزيون بكامل أناقته وأوسمته وفي وقت غير مألوف لإذاعة بيان انقلاب، أي في نشرة الأخبار المسائية، وتلا بلاغاً إنشائيّاً لا يوحي بحزم الانقلابيين عادة، يطالب فيه بأمور يدرك أنها لن تنفذ وأنه غير قادر على تنفيذها، فلم يشعر الناس أنهم في جو انقلاب. فالانقلابيون لا يطالبون بل يفرضون. وأول ما يقومون به اعتقال المسؤولين، والإعلان عن تسلمهم السلطة لتصحيح الأوضاع، أو تلبية لرغبات الشعب، أو لأي ذريعة يخترعونها، وبعد ذلك يمكن مفاوضة بعض السياسيين الذين يفيدون الانقلابيين.

ويبدو أن قيادة الجيش وكبار الضباط تداولوا فيما بينهم، وبخاصة بعد تمرُّد الملازم أول أحمد الخطيب، واتفقوا على القيام بحركة عسكرية، أو فكروا فيها، ولم تتضح لهم معالمها وإمكانات نجاحها لتعقيدات الوضعين السياسي والعسكري يومها، بالإضافة إلى الانقسام الطائفي. ويدل على ذلك ما نقل من مخابرة هاتفية بين قائد الجيش يومها حنا سعيد والأحدب إذ قال للأحدب

ما هكذا كان اتفاقنا... وكذلك لتضمن البلاغ الأول تأييده إعلان القيادة العسكرية الصادر قبل مدَّة وجيزة.

وأظن أن حصول انقلاب فعلي في تلك الظروف في لبنان أمر مستحيل، كانت تدركه قيادة الجيش وتخشى القيام به.. فلبنان تركيبته طائفية، إن حاول ضابط أو مجموعة من طائفة معينة القيام بانقلاب وتسلم السلطة، واجهها العسكريون من طوائف أخرى.

وإن جمع قائد الجيش أركانه، وكبار الضباط من مختلف الطوائف. وشكل مجلساً عسكريّاً يراعي التمثيل الطائفي وقرروا القيام بانقلاب عسكري، ووضع حدٍّ للفلتان الذي كان قائماً يومها في البلد، فلا إمكانات لديهم ولا قدرة على السيطرة. فالمنظمات الفلسطينية لديها من القدرات القتالية ما يمكنها من مواجهة الجيش، وتكبيده خسائر فادحة. فما بالك إذا انضمت إليها ميليشيات الحركة الوطنية. كما أن الاتفاق المسبق مع أي جهة أو طرف من الأطراف سيضع الأطراف الأخرى مجتمعة في مواجهة الانقلاب.

وأظن أن قائد الجيش وأركانه قدروا الموقف تقديراً عمليّاً، وحسبوا ميزان القوى، وكانوا يدرسون أفضل السبل للنجاح. فأغرت جهة أجهلها الأحدب بالقيام بحركة بنيَّة الاستفادة منها لا رغبة في نجاحها على ما أظن.

فالذي تولى الإشراف على قناة التلفزيون رقم ٧ في تلة الخياط التي أذاع منها الأحدب بيانه الأول، وكان يذيع بيانات لاحقة هو رائد من المقربين من جنبلاط، وكنت على معرفة به، وبيننا زيارات، والتقيت به في تلك الأيام أكثر من مرَّة في بيت عديله. ولما سألته عن سبب معارضة جنبلاط للانقلاب، لم يفسِّر لي الدوافع والأسباب.

وربما دفع انقلاب الأحدب مجلس الوزراء إلى الاجتماع في ١٩٧٦/٠٣/٢٢ للموافقة على اقتراح رئيس الجمهورية تعديل الدستور بحيث يمكن انتخاب رئيس الجمهورية في مهلة ستة أشهر قبل انتهاء ولاية الرئيس الحالي بدل شهرين. ودعا إلى إحياء اللجان الأمنية المشتركة برئاسة العقيدين السوريين علي المدني ومحمد الخولي. لكن جنبلاط رفض القرار وصعَّد الموقف، واشتعل البلد من جديد، وانهالت على بيروت القذائف المختلفة، وقصف القصر الجمهوري للمرة الثانية بعنف هذه المرة، فأصيب بعض غرفه ما اضطر رئيس

الجمهورية إلى مغادرته إلى بيت سليم الخوري في منطقة النقاش المسيحية، ثم إلى بلدية زوق مكايل.

وقصد رئيس الجمهورية في تلك الأيام سورية ومعه رئيس الوزراء رشيد كرامي، وجرى الاتفاق برعاية الأسد على إصلاحات دستورية لم تبصر النور في خضم اشتداد المعارك.

ومع أن معظم المواطنين العاديين والتجار أملوا خيراً من انقلاب الأحدب، فإن معظم السياسيين والقادة، نظروا إليه بارتياب، وتخوَّف بعضهم من وجود جهات خارجية وراءه، تدعمه، لعلاقات عائلة الأحدب بفرنسا. كما عملت سورية على إفشاله، وساعد في ذلك نمو جيش لبنان العربي بقيادة أحمد الخطيب الذي انضمت إليه ثكنات عدَّة بدل تأييد الأحدب.

وكتبت في أوراقي في ذلك الوقت: «في مأساة لبنان تجتمع المتناقضات والغرائب، فرئيس الجمهورية لا يستطيع الإقامة في قصره، وهو هارب يتلطى من منزل إلى آخر، ووزير الداخلية يقود ميليشيا تحارب قوات الأمن، ورئيس الوزراء إذا أراد أن يتصل بموظف في إحدى الوزارات يرجوه على التلفزيون أو الإذاعة أن يتصل به، والوزارة مستقيلة شفهيّاً، وأحد وزرائها عادل عسيران، وزير الاقتصاد، يلاحق عمليات التموين. ورئيس الجمهورية مطالب بالاستقالة من قبل أكثر من ثلثي النواب بعريضة خطية تحمل ستة وستين توقيعاً، وهو لا يحفل بها، بينما قائد الانقلاب، قائد موقع بيروت متمرِّد قانوناً، بعد أن نصَّب نفسه حاكماً عسكريّاً، وفي الوقت ذاته يسعى لحماية اجتماع النواب لانتخاب رئيس للبلاد بحسب الدستور».

الاستنجاد بـ«إسرائيل»

بدا واضحاً تفوق القوى الوطنية على تجمع قوات الكتائب والأحرار ومن انضم إليهم من ضباط الجيش وعناصره. وقد أجاد أحد قياديي الكتائب في وصف الوضع لديهم فقال:

«كانت ليلة من ليالي آذار/ مارس ١٩٧٦ المظلمة، والمعارك في الأسواق التجارية في بيروت على أشدها... وكنت بحكم وظيفتي كرئيس تحرير لجريدة العمل الناطقة بلسان حزب الكتائب.. أمضي الليل مع الشيخ بشير...

في الشـــارع المظلم ضوضاء وجلبة، فالمقاتلون يحتشدون بالعشرات... ومن خلال إحدى النوافذ المطلة عليهم كان بشير يتأمل في الوجوه وقد وقفت إلى جانبه أشـــاركه التأمل والقلق... وقال: هل ترى كل هؤلاء المقاتلين الأشداء؟ إنهم الليلة يرفضون الحلول مكان رفاقهم على خطوط النار. فلا ذخيرة كافية لديهم وما جمعناه من رصاص من الأهلين قد نفد، ولا أدري ما العمـــل»[1]. ويتابع القيادي الكتائبي روايته عن الاتصال بـ«إسرائيل» وتأمين الذخيرة، فيقول إن بعض الرفاق توجهوا إلى «إسرائيل» بحراً من تلقاء أنفسهم، وأنهم عادوا ليقولوا: «إن الجماعة على استعداد لتزويدنا بالذخائر» ويقول إنه هو والشيخ بشير كانا خائفين وحذرين من هكذا خطوة، ولكنه قرر عرض الموضوع على الشيخ بيير، فقابله ليلاً، وعرض عليه الموضوع. فقال له الشيخ بيير بداية «الذهاب إلى «إسرائيل» عمل خطير وخطر». فبيَّن له ضرورة ذلك وحجته وأنه ســيقوم بذلك على مسؤوليته. واعتبر ســكوت الجميل موافقة، وسافر بحراً مع بعض المرافقين، والتقى مسؤولين إسرائيليين على أعلى المستويات. وهكذا بدأ تدفق الأسلحة المختلفة والذخائر بحراً على القوات المسيحية.

وعلى الرغم من حرص الكتائب و«إســرائيل» معاً على إبقاء علاقتهما سرّاً مخفيّاً[2]، فقد كان شــائعاً بين اللبنانيين وغير اللبنانيين تلــك العلاقة، ومصدر الذخائر والأسلحة، وأنها من «إسرائيل» والولايات المتحدة. وبعض الدول العربية.

وكانت ســورية قلقة، وحذرة من التدخل العلني، فحتى ذلك الوقت كانت تخشى إن تدخلت علناً من تدخل «إسرائيل» بقواتها علناً، وهي تتحاشى الانزلاق إلى حرب جديدة مع العدو الإسرائيلي. وإن كانا يلتقيان في بعض الأهداف ولكن لأسباب مختلفة.

خطة كيسنغر

ولكن الأمور تغيرت بشكل كبير، ويفسر ذلك التغيير باتريك سيل، فيقول:

«كان الخط المعروف المألوف عن الموقف تجاه لبنان في أميركا و«إسرائيل» هو تخويف الأســد كي يبقى خارج الحلبــة اللبنانية بينما يُترك الفلســطينيون

---

(1) أبو خليل، جوزيف، قصة الموارنة في الحرب (ســيرة ذاتية)، شــركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ط١، ١٩٩٠م، ص٤٣ وما بعدها.

(2) أبو خليل، م.س. ص٥٤.

واللبنانيون ليتذابحوا إلى النهاية. كانت هذه هي غريزة «إسرائيل». وفي بادئ الأمر كانت هي أيضاً غريزة كيسنغر.

ولكن فكرته البارعة المفاجئة الجهنمية كانت قلب هذا المفهوم المألوف رأساً على عقب. فقد خطر لكيسنغر أن السياسة الصحيحة لم تكن بالتأكيد تخويف الأسد من الدخول، بل تخويفه من عدم الدخول، وبدلاً من أن يقال له إذا دخلت فسوف تدخل «إسرائيل»، فإن الرسالة الأكثر دهاء أن يقال له: إذا لم تدخل فإن «إسرائيل» ستدخل بالتأكيد... وأدرك كيسنغر الماكر المراوغ أن قلق الأسد يمكن الاستفادة منه، ولا بد أنه استطاب المفارقة الهائلة لموقف يضطر فيه الأسد إلى سحق الفلسطينيين بدلاً من حمايتهم، وذلك لمنعهم من التسبب فيما كان يخشاه أكثر من أي شيء آخر ـ أي الغزو الإسرائيلي»[1].

ويذكر سيل «أن الأسد ستلوث وتنسف مكانته بسبب فعلة شنعاء في نظر العرب[2]».

وقد وضعت «إسرائيل» شروطاً للموافقة على دخول الأسد إلى لبنان سميت بالخط الأحمر[3] ومن أهم تلك الشروط عدم التقدم جنوباً باتجاه الحدود «الإسرائيلية»، وعدم وضع وسائط دفاع جوي وبعض الشروط الأخرى.

وكانت الولايات المتحدة تنسق بين «إسرائيل» وسورية، في ما يشبه المفاوضات غير المباشرة لتحديد حجم القوات والحدود المسموح لها الوصول إليها.

وعين كيسنغر السفير دين براون مبعوثاً خاصّاً إلى المنطقة، يشرف على تنفيذ سياسته، التي رسمها بدقة متناهية.

وفي ٢٧ آذار ١٩٧٦ اجتمع جنبلاط (كمال) بالأسد ٧ ساعات واختلفا، ولم ير أحدهما الآخر بعدها[4].

---

(١) سيل، باتريك، م.س. ص ٤٥٢.

(٢) سيل، باتريك، م.س. ص ٤٥٣.

(٣) سيل، باتريك، م.س. ص ٤٥٤.

(٤) سيل، باتريك، م.س. ص ٤٥٧.

ومع كل يوم يمضي كانت الأزمة اللبنانية تزداد تعقيداً، ويزداد المتدخلون فيها، ولكل منهم أهدافه الخاصة به والتي كثيراً ما تتعارض مع أهداف الأطراف الأخرى، أو بعضها، ما جعل الساحة اللبنانية مستباحة من أطراف عدَّة.

فسورية اللاعب الرئيس في لبنان تعدُّه جزءاً منها، سلخه الاستعمار. وترى وجوب توافق سياساته مع سياستها. وتسعى دائماً لعلاقات مميزة مع حكومته. كما تسعى للسيطرة على القرار الفلسطيني، الذي كان ياسر عرفات يحاول أن يبقيه في يده بعيداً عن تدخل أيَّة دولة. ولهذا كانت العلاقات بين سورية ومنظمة التحرير كثيرة التقلب، ما جعل سورية تعمد إلى إنشاء منظمة الصاعقة لتكون تحت سيطرتها الكاملة، بالإضافة إلى جيش التحرير الفلسطيني الذي يأتمر بأمر القيادة السورية. كما عملت لاحقاً على تشجيع انشقاق عناصر من فتح شكلوا ما سمي «فتح الانتفاضة».

ولم يرق للسادات في مصر، أكبر دولة عربية، أن تستأثر سورية بالقرار الفلسطيني، وأن تفرض سياستها على لبنان، الأمر الذي يعيقه في تنفيذ مخططاته لإقامة علاقات مميزة مع الولايات المتحدة، والسير بسياسة الصلح المنفرد مع العدو الإسرائيلي. ولذلك كان يعمل على تعريب الأزمة اللبنانية، وأن يكون حلها في إطار الجامعة العربية. ويؤيده في ذلك جنبلاط وعرفات في الداخل اللبناني، كل منهم لهدف خاص به.

فجنبلاط يختلف مع الأسد، وهو يرغب بكسب الوقت لمحاولة السيطرة على لبنان عسكريّاً. بينما عرفات يهمه التخلص من الأوامر السورية، ومحاولتها السيطرة على القرار الذي يريده بيده وحده.

وكان العراق، من الدول العربية، يؤيد موقف السادات بشدة، نكاية بسورية للخلاف المعروف يومها بين جناحي حزب البعث، اللذين يحكم كل منهما في قطر. بينما دأب الأردن على مساعدة الجانب المسيحي لعدائه المستحكم للمنظمات الفلسطينية التي خاضت حرباً شرسة معه في أيلول سنة ١٩٧٠م.

أما العدو الصهيوني فأهدافه كثيرة، وأهمها القضاء على المقاومة الفلسطينية، وتدمير لبنان الذي يشكل كياناً نقيضاً للكيان الإسرائيلي، ومنافساً ديمقراطيّاً خطيراً على مكانته في المنطقة، ويتمتع بعلاقات طيبة مع الغرب الذي يدعمه، ويسعى إلى تخريب تلك العلاقة، وخلق فوضى في المنطقة تشغل العالم العربي عن قضاياه الرئيسة.

وكانت أولويات الولايات المتحـــدة متطابقة في معظمها مع أهداف الكيان الصهيوني، وتسعى لإشـــغال العرب بلبنان، بينما هي تعمل لإتمام الصلح بين مصر والصهاينة.. وتوريط سورية المتمردة في لبنان وإلهائها بمشاكله المعقدة، عما يجري بين الولايات المتحدة ومصر و«إسرائيل»..

في حين كانت فرنسا تساير الولايات المتحدة، وتسعى للاحتفاظ ولو ببعض نفوذها في لبنان.

التدخل السوري

في هذا الجو المتوتِّــر والمعقَّد قررت القيادة الســـورية الدخول إلى لبنان بقواتها النظامية، وبالاتفاق مع الولايات المتحدة، وبشروط إسرائيلية عملت على بلورتها الولايـــات المتحدة، بعدمـــا كان تدخلها تحت ســـتار منظمة الصاعقة الفلسطينية، وجيش التحرير الفلسطيني. لقد كانت سورية حتى وقت قريب من ذلك التاريخ تدعم «القوى الوطنية» فتحوَّل موقفها إلى دعم القوى المسيحية، والدفاع عنها، والحفاظ عليها... وطفا على الســـطح خلافها مع القوى الوطنية التي كان يتكلم باسمها كمال جنبلاط، وهاجم عملية دخول قوات من الجيش الســـوري إلى الأراضي اللبنانية قائـــلاً: «إننا نرغب في أن يتـــمَّ انتخاب رئيس الجمهورية بحريَّة كاملة، وبإرادة لبنانية، ومن دون تدخلٍ من أية جهة أتت. لهذا على رئيس الحكومة أن يطلب تأمين الحريَّة علـــى كلٍ المناطق اللبنانية...»[1] وطالب بتعريب القضية اللبنانية. ولكن «دين بـــراون» المبعوث الأميركي إلى الشرق الأوسط صرَّح ـ بعد اجتماعه برئيس الوزراء رشيد كرامي ـ أنه يرى أن الجميع يؤيدون المبادرة السورية.

وفي العاشر من نيسان اجتمع تســـعون نائباً في قصر منصور بحماية قوات الأمن الداخلي، وجيش التحرير الفلسطيني (السوري)، وعدَّلوا الدستور ليصبح بالإمكان دستوريّاً انتخاب رئيس جديد قبل انتهاء ولاية الرئيس بستة أشهر.

وفي ١٢ نيسان تحدث الأسد عن المبادرة السورية، وقال: «إن موقفنا الثابت إزاء ما يجري في لبنان هو أننا ضد أيِّ طرف يصرُّ على اســـتمرار القتال. الثائر لا ينطلق من أحقاده، ومن أنانيته، ومن مشاعره، ومن الانتقام والثأر. الإسلام أبعد

---

(١) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص١١٤٨.

ما يكون عن هذه المنطلقات. أيضاً المسيحية بعيدة كل البعد عن هذه المنطلقات. الناس في لبنان الذين يصرون على القتال لا صلة لهم بالدين».

وعلى الأثر اشتعلت محاور القتال، فاجتمع الأسد وعرفات واتفقا على إحياء اللجنة الثلاثية، السورية اللبنانية الفلسطينية[1] وعلى التهدئة... لكن الاتفاق لم يعجب الجانب المسيحي، وانتقده الجميل وشمعون، بينما أعطى إسحق رابين الضوء الأخضر لدخول الجيش السوري إلى لبنان، فصرَّح: «إننا لن نتدخل في لبنان إلا إذا تخطى السوريون حدوداً جغرافية في جنوبي لبنان، أو حدّاً معيَّناً في حجم القوات والأسلحة»[2] والحدُّ المعيَّن الذي يقصده، والذي لم يعلن، هو المتفق عليه بين الولايات المتحدة وسورية و«إسرائيل».

انتخاب إلياس سركيس

كان كرامي يؤيد ترشيح إلياس سركيس لرئاسة الجمهورية. ويستنتج من طريقة إجراء الانتخابات أنه متوافق عليه بينه وبين سورية والولايات المتحدة. وأيَّد بيير الجميل موقف كرامي، بينما عارضه جنبلاط الذي كان يؤيد رجل المبادئ والقانون ريمون إدة.

ومع أن القوى الوطنية حذَّرت من انتخاب رئيس الجمهورية في ظل الضغط العسكري، فقد رشَّح سركيس نفسه، وقررت سورية حماية عملية الاقتراع.

وبذل كامل الأسعد رئيس المجلس النيابي يومها جهوداً جبارة، في ظل تدهور أمني واسع، لعقد مجلس النواب في مركزه المؤقت «فيلا منصور» في المنطقة الفاصلة بين المنطقتين الشرقية والغربية، فنقلت قوات من الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني معظم النواب تحت حراسة مشددة، فاكتمل النصاب، وانتخب إلياس سركيس رئيساً. ولكن جنبلاط والقوى الوطنية رفضت نتائج الانتخاب، وقررت المواجهة.

وفي ١٩٧٦/٠٦/٠٦ جمع الأسد بعض كبار الضباط، ورئيس منظمة الصاعقة «والتفت الرئيس الأسد نحو الرفيق زهير محسن، وقال له: يا رفيق زهير لقد طلبت منا سرية واحدة من جيش التحرير الفلسطيني لحسم الأمور في لبنان

(١) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص١١٥١.

(٢) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص١١٥٢.

فأرسلنا إليك سريتين.. ثم تابعنا تعزيز القوات حتى أصبحت كتيبتين. ثم طلبت سرية مغاوير من الوحدات الخاصة فأرسلنا إليك ثلاثاً، وها هي الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، ولذلك دعوتكم اليوم للاجتماع حتى تعلموا بأنني أصدرت التوجيهات اللازمة لوزير الدفاع اللواء طلاس لكي يتخذ ما يراه مناسباً من الإجراءات لوأد الفتنة الدامية ومنع الاقتتال بين الأطراف كافة..»[1].

وكنت في تلك الأثناء أسجل بعض الأحداث والأفكار للذكرى والعبرة، ومما وجدته في أوراقي:

في أول حزيران سنة ١٩٧٦م دخل الجيش السوري النظامي لبنان بغرض معلن هو فرض الأمن في لبنان، بعدما فشلت المبادرة السورية لحلِّ الأزمة اللبنانية. وكان دخوله كثيفاً وعنيفاً، ليكون قادراً على فرض الحلِّ الذي ترتئيه سورية بالقوة على الأطراف المختلفة.

ولا يستطيع الإنسان في هذا الوقت المبكر [يومها] أن يتبنى فكرة الذين يرون أن سورية كانت تتعمد المساعدة في استمرار الفتنة والقتال لتصل إلى مرحلة الاحتلال.

المهم أن الدخول بدا موجهاً ضد الفلسطينيين والحركة الوطنية التي كانت سورية حليفتها قبل ذلك التاريخ. وكنت يوم الجمعة في ١٩٧٦/٠٦/٠٤ في منزلي مع صديقين عندما زارني أحد أصحاب المطابع التي أتعامل معها، وطلب مني بصوت منخفض لا يسمعه الموجودون، أن أدفع إليه مبلغاً من المال رصيد حساب أجور الطباعة، لأنه سيغلق المطبعة، ويذهب إلى القتال في منطقة عيون السيمان مع قوات الحركة الوطنية، ضدَّ القوات السورية المتقدمة، بينما سيذهب أخوه للقتال في جبهة أخرى في الجنوب.

فنظرت في وجهه نظرة أبلغ من الكلام، فهم معناها أفضل مما لو شرحت له ما أعنيه ساعة من الزمن، ودمعت عيناه وقال من دون أن أنبس ببنت شفة: لقد قال لنا الضابط إن قلوبنا تدمى، وعيوننا تدمع، ونحن نصدر أوامر القتال، وبخاصة أننا سنقاتل السوريين بالسلاح الذي هم أعطونا إياه، لكن لا خيار لنا إلا القتال، فهم الذين وضعونا في هذا الموقف الصعب.

---

(١) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص١١٥٩

وفي الواقع لم أستطع وصف شعوري بالكلمات، ولم أجد ما أقوله له سوى أن ينقل إلى الضابط نصيحة بعدم القتال، واللجوء إلى مكبرات الصوت، والاتصال المباشر، والتفاوض مع الضباط في الجهة المقابلة، عسى أن يجدوا طريقة لتجاوز القتال بالمفاوضات، فمن المخجل أن يرفع أي طرف منهما سلاحه في وجه الآخر.

ودفعت له حسابه، وودعته بالدموع بعدما توقف عقلي عن التفكير لفترة من الوقت، تمر خلالها بخيالي صور قتال الإخوة.

معركة صيدا

وكانت الصحف والإذاعات تنشر وتذيع أخبار القتال، ولكنها لم تكن تسجل خواطر الناس، فهي لا تستطيع ذلك. فقد روى لي صديق أنه كان في زيارة صديق له في صيدا بعد المعركة الأولى هناك. وجلس مع أفراد العائلة يتبادلون الحديث عن المعركة ونتائجها... وكانت سيدة مسنَّة تدخن نرجيلتها في زاوية منعزلة من زوايا الغرفة، فتدخلت في الحديث قائلة: أنا لست جاهلة، أنا أعرف التاريخ، إن الإسكندر المكدوني عندما هاجم صيدا، حرقها أهلها، وخرجوا منها، حتى لا يستفيد من شيء فيها إذا دخلها. وأنا سأحرق بيتي قبل أن يدخلوه، ولن أدعهم يدخلونه صالحاً... فتذكرت ما قاله لي أخي بعد أن مضى على وجوده في الولايات المتحدة يومها أربعة عشر عاماً، أنه لاحظ أن اللبناني يحب بلده أكثر من جميع العرب، فهو يفكر دائماً بلبنان وبالعودة إلى لبنان أو بشراء أرض في لبنان.

وقد أبدى بعض الفلسطينيين المقاتلين ضد القوات السورية المتقدمة على محور صيدا شراسة وجرأة نادرة في مقاومة المتقدمين، أدَّت إلى خسائر فادحة في صفوفهم، قدرت بكتيبة دبابات، الأمر الذي لم أجد له مسوغاً، وسمعت أن القوات المتقدمة لم تقم بالاستطلاع المفترض قبل التقدم، فكمن لها مقاتلون على طرفي الطريق، وتركوها تتقدم حتى مدخل المدينة حيث يوجد جسر صغير، وفجأة فجروا الجسر وضربوا الدبابة الأخيرة، فحصرت بقية الدبابات وتعرضت للنيران من جانبي الطريق، فدمرت تسع عشرة دبابة خلال أربعين دقيقة، ما أثار استغراب معظم المحللين العسكريين وقد سمعت شائعة أن القوات السورية حصلت على وعد بعدم المقاومة، ما جعلها تقع في المصيدة.

أما ما قرأته، وأنا أستعيد هذه الذكريات، في كتاب وزير الدفاع السوري يومها. «كان العقيد الركن فؤاد العبسي قائد اللواء ٢١ مشاة ميكانيكية بالفرقة الثالثة دبابات، الذي كلِّف بحسم الموقف العسكري في المنطقة (مشغرة، جزين، صيدا) يعتقد أنه من رابع المستحيلات أن تتصدى لعناصره الفصائل الفلسطينية أو القوى المحسوبة على الحركة الوطنية... وعلى هذا الأساس والأفكار المسبقة لم يتخذ اللواء ٢١ تدابير الحيطة الواجبة والواردة في نظام القتال»[1] فيا له من تبرير، ويا له من دفاع! ولكن يبدو أنه غضب لخسارة قواته والجرأة على مواجهتها، فأعطى ـ كما قال ـ تعليمات جديدة لقائد اللواء: «إن الحرب هي الحرب، وعليك أن تتعامل مع القوات المناوئة كما تتعامل مع الجيش الإسرائيلي لأن كل من يقف في طريق الجيش السوري ويعرقل تنفيذ مهمته القومية هو صهيوني ابن صهيوني، حتى ولو لبس الكوفية والعقال.. وبكلمة واحدة عليك أن تطبق مبدأ الأرض المحروقة حتى يتمَّ إنجاز المهمة بنجاح»[2].

ولا أرغب بالتعليق على هذه الأوامر، فأنا أسجل وقائع.. ولاريب أن تعامل تلك القوات مع الفلسطينيين واللبنانيين المناوئين كان أسوأ من تعامل جيش العدو الصهيوني معهم.

في حين كان التنسيق مع قوات بشير الجميل كاملاً، وعلَّق طلاس على زيارته جبل الكنيسة فقال: «لفت نظري كلمات آخر برقية تلقاها الموقع من قائد القوات اللبنانية بشير الجميل يقول فيها: نسقوا مع القوات السورية عل الماكسيمُم»[3] وكل استغرابه انصب على كلمة أجنبية يتندر على استعمالها.

ولن أسترسل في الاقتباس من كتب آخرين لأنتقل إلى أوراقي الخاصة ومشاهداتي، ووصف الحياة الخاصة والأسرية، وحياة عامة الناس في بيروت في تلك الأيام الصعبة.

ففي ليلة ١٩٧٦/٠٦/١١ تعرضت منطقة سكني لقصف عنيف لم يسبق له مثيل. بدأت المعركة برشقات من أسلحة رشاشة كانت تنطلق من الجنوب الغربي للبناء الذي أقطنه على مسافة زهاء ثمانمئة متر، ويجري الرد عليها من

---

(١) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص ١١٦١.

(٢) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص ١١٦١.

(٣) طلاس، مرآة حياتي، م.س. ص ١١٦٣.

الجنوب الشرقي على المسافة ذاتها تقريباً. وكان حقل الرمي يضيق ويتسع، وأنا أشاهده من نافذة منزلي في الطابق الرابع، وأتابع الرشقات الخطاطة والصواريخ التي تنطلق من جانب لتنفجر في الجانب الآخر. وكان مسار الصاروخ واضحاً يشبه كتلة لهب تنطلق بسرعة لتتلاشى عند الانفجار. وبدا لي أن المشهد سيكون أوضح إن صعدت إلى سطح البناية، فناديت أحد الجيران، فتبعه ستة أشخاص، وصعدنا جميعاً لنقف في غرفة الدرج فوق الطابق السابع. وفيما نحن نراقب حقل المعركة، ونرصد الطلقات الخطاطة والصواريخ، انفجرت على مقربة منا قذيفة هاون لم نشاهدها. فقذف بنا صوتها وضغطها إلى داخل البناية، وبدأت القنابل تنهمر، ونحن نهرول على الدرج مسرعين، لنجد النساء والأطفال جالسين على الدرج مذعورين بين الطابقين الثالث والرابع. واقتضى الحال برهة من الوقت استعاد فيها المذعورون روعهم، وبعد ذلك قررنا النزول إلى ملجأ البناية. وكانت زوجتي بجانبي تحمل بنت الجيران الصغيرة، وتنتعل «شحاطة» فكان همها على الرغم من ذعرها أن تحصل على حذائها من داخل المنزل، فبابه مفتوح وهو على بعد ثلاثة أمتار من مكان انزوائنا. ولكنني رفضت تركها تدخل المنزل، ووعدتها بأنني سأحضر لها ما تريد، أما الآن فعلى الجميع النزول إلى الملجأ. فرفضوا النزول من دوني، فطلبت منهم الهدوء، والنزول اثنين اثنين لكي لا يتعرض المجموع لأي قذيفة محتملة من زجاج منور الدرج، وبعد نزول الجميع، زحفت إلى داخل المنزل، وأخذت أوراقي الثبوتية، وما معي من مال وهبطت إلى الملجأ.

وقد لفت نظري اهتمام بعضهم في تلك الظروف باصطحاب حرامات أكثر من اهتمامهم باصطحاب أولادهم. وذهول بعضهم بشكل لم يعودوا قادرين على التفكير، بينما بقيت قلَّة هادئة وطبيعية. وبعد ساعتين هدأ القصف فصعدت وزوجتي وابني الصغير تمام، وإحدى الجارات، لننام أمام المصعد على سلم البناية، وبقي ابني نضال وزوج الجارة نائمين في الملجأ مع بقية السكان، خوفاً من تكرار القصف كالعادة. وقد مضى علينا على هذه الحال عشرة أيام.

وأما الملجأ الذي لم أستطع النوم فيه، فهو مستودع لأحد سكان البناية، حشر فيه التبن الذي كان يبيعه إلى جانب الشعير، وكيساً من الطحين، وربما مئة زوج أحذية عتيقة، وخمسين تنكة فارغة، ونصف طن من الأخشاب المكسرة، وكمية من الأكياس الفارغة، والتجهيزات المنزلية التالفة، ما جعلنا ننظف إحدى زواياه،

بمساحة لا تزيد عن ثلاثين متراً مربعاً، ونجلس فيها، وفي المدخل مع الفئران والصراصير. ولاحظت أن إحدى الجارات تخاف من الصرصور أكثر مما تخاف من أي شـيء آخر، وهي التي رفضت النوم في الملجأ. وكان يضحكنا بعضهم بالصراخ «صرصور» فتقفز من مكانهـا، وتبقى واقفة حتى تتأكد من عدم وجود صرصور ولا يتعدى الأمر المزاح معها.

وكانت أم شاكر لا تسـتطيع النوم في ذلك المكان. فكنا كلما هدأ القصف تسللت وإياها إلى مدخل منزلنا لنظفر ببعض ساعات الراحة.. وبخاصة أنني أنفذ الحديث الشريف «اعقل وتوكل»، ولكنني في قرارة نفسي أؤمن بأنه لا يصيبنا إلا ما كتـب الله لنا. فقد كان أحـد معارفي ينام فـي غرفته عندمـا اخترقتها ثلاثة صواريخ، قضت على أثاثها كله، وحطمت النوافذ، وسقطت شرفتان في البناء، ولم يصب الرجل بأي أذى.

حصار بيروت

وقد فرضت قوات الكتائب حصاراً على بيروت الغربية من جهة الشرق والشـمال، وفرضت القوات السـورية حصاراً تموينيّاً مـن مداخل بيروت الأخرى. لدرجة مصـادرة أي رغيف على حاجز خلدة جنوباً. ولم أسـتطع تأمين رغيف واحد خلال عشـرة أيام، أنجدني خلالها صديق ببعض الخبز الجاف. واستهلك الأولاد الكعك الذي ادخرته، وفرض علينا ترطيب الخبز اليابس بالماء وأكله. وعلى الرغم من سوء تلك الحالة فقد وجدت فيها درساً للأولاد الذين كانوا يتكبرون علـى أكل حواف الرغيف الطازج، ليعلموا أن رغد العيش لا يدوم، ويفهموا عمليّاً ما كنت أقوله لهم «اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم». وأرى أنه من الضروري أن يشعر الأطفال بالجوع والعطش ليشعروا مع الفقراء والمسـاكين... وأمضينا أسـبوعاً على تلك الحال استهلكنا فيه ما لدينا من كعك وخبز جاف. ولاريب أن القوات السـورية أخطأت بفرض ذلك الحصار في حين أن تدخُّلها كان يفترض فيه فك الحصار، إذ ولَّد ذلك حقداً على السوريين في نفوس اللبنانيين، وكان المفترض مصادرة الذخائر والأسلحة، والسماح بالطعام والمحروقات.

والغريب في الأمر أن الرئيس المنتخب إلياس سركيس كان قد توصل إلى قاسـم مشـترك بين الحركة الوطنية والكتائب والمقاومة الفلسـطينية، وهدأت

الجبهات، وكان كل شـيء يوحي بأن الوضـع يتجه إلى الاسـتقرار... وفجأة حوصرت القبيات وعندقت في شـمالي لبنان، وحوصرت زحلة وقصفت قصفاً شديداً، وكان هذا السبب المباشر لدخول القوات السورية، وهذا يدل على مخطط وضعته جهات قادرة، وتعمل على تنفيذه بمهارة عالية.

وقد كتبت يومها أنني كنت أظن حزب الكتائب حزباً معتدلاً متوازناً، وأحترم بيير الجميل لصراحته ووطنيته، لكنني بدأت أشعر من خلال تصريحاته وتعليقات إذاعة الكتائب، وأخبارها بشـكل خاص، أنها أبعد ما تكون عـن الاتزان، بل تتصرف كالأطفال الصغار، فتغير مواقفها بين الصباح والمساء، وبشكل كبير، تؤيد سـورية في الصباح، وتهاجمها في المساء. وأخذت تهاجم العرب، كل العرب، وتتجنى على الإسلام والمسلمين. وفي بداية الأحداث قتل الكتائبيون عدداً كبيراً من السوريين، ووضعوا مرَّة جثثاً في كيس مع ورقة بكلام غير لائق للأسد. ولم أعد أفهم ماذا يريدون ولماذا كل هذا التخبط، مـع أنني أميل إلى أن ذلك من أعمال مخابرات إسرائيلية أو سورية لتأجيج الفتنة.

وفي ١٩٧٦/٠٦/١٢ صدر مشروع قرار عن وزراء خارجية الدول العربية حول الحرب اللبنانية في جلسـة اسـتثنائية دعا إليها أمين الجامعـة محمود رياض. وتضمن الطلب إلى جميع الأطراف وقف القتال فوراً، كما جاء في البند الثالث «تشكيل قوات أمن عربية رمزية تحت إشراف الأمين العام لجامعة الدول العربية، للحفاظ على الأمن والاسـتقرار في لبنان، ويتم تحريك هذه القوات لمباشـرة عملها، وتحلُّ محلَّ القوات السورية، وتنتهي مهمتها بناء على طلب من رئيس الجمهورية المنتخب إلياس سركيس»[١].

بالإضافة إلى بنود أخرى تتعلق بتشكيل لجان متابعة، ودعوة للمصالحة الشاملة.

وفي ١٩٧٦/٠٦/١٦ استقبل إلياس سـركيس رئيس الجمهورية محمود رياض أمين عام الجامعة، وأصدر قراراً بقبول قرارات الجامعة في ١٩٧٦/٠٦/١٧.

وأصبح همي إرسـال عائلتي إلى دمشـق، ولما قررت جارتنا، زوج هيثم المهايني المخاطرة والسفر، أرسلت معها ابني الصغير تمام في ١٩٧٦/٠٦/١٣. وفي ٧٦/٠٦/١٤ سافرت أم شاكر ونضال مع صديق صحافي، وسلكوا طريق عرمون،

---

(١) الساطع، تاريخ ووثائق، م.س. ص ٣٣٧

سوق الغرب، بحمدون الضيعة، شــاناي، صوفر، فأوقفتهم القوات السورية في البقاع واضطروا إلى العودة بحجة وجود رمايات متبادلة.

ووصلتني معلومات لــم أتأكد من صحتها أن بعــض الأفراد من الوحدات السورية التحقت بالقوات الفلسطينية، وترافق ذلك مع هروب نقيب طيار سوري بطائرته إلى بغداد.

وأمضينا أياماً صعبة بلا كهرباء، نســتعمل الشــموع وما تيسر من وسائل الإنارة، وقطعــت الاتصالات الهاتفية، وبقي لدينا مــاء، في حين عانى معظم سكان بيروت من انقطاع الماء والكهرباء والاتصالات وعزلت بيروت عن العالم بإغلاق المطار أيضاً.

وكنت في تلك الأيام أنام على الأخبار وأســتيقظ عليها، فلمست من راديو دمشق أن سورية شــعرت بورطتها، وترغب في الانسحاب وفي ٠٦/١٧ ورد في الأخبار أن المطار سيفتح، والكهرباء ستعود. ولكن على الصعيد الشخصي علمت بخلع باب مكتبي، ولم أستطع تفقده، لعدم وجود بنزين لدي، ولشعوري بالفراغ الأمني الذي يعمُّ البلد بعد قتل السفير الأميركي أمس، وأصبح همي تسفير زوجي أم شــاكر وابني نضال إلى ســورية، وتمكنت من ذلك يــوم ٠٦/١٨، وانقطعت أخبارهم حتى يوم ٠٦/٢٢ حيث وصلني خبر وصولهم في يوم سفرهم برسالة من ابني شــاكر مع ســائق تاكســي، علمت منه بفتح الطريق بين دمشق وبيروت، والأجرة خمسون ليرة بعدما كانت خمس ليرات، لسلوك طرق فرعية غير الطريق الدولية بين البلدين.

وبعد ســفر نضال وأمه، كان همي ملاحقة الأخبار فــي الراديو والصحف لأطمئن من عدم نشر أخبار عن خطف أو قتل أو غير ذلك.

وكتبت في أوراقي خواطر منها عجبي من القدرات التي منحها الله الإنسان، فهو يتعايش مع الواقع مهما كان مرّاً، ويصبر في الشدائد، وهذا من نعم الله ﷻ على عباده، وهم لا يدركونها.

وقد رُفع الحصار التمويني في ٠٦/٢٢ ولكن الاشــتباكات العنيفة بين قوات الكتائب وحلفائها من جهة، وبين القوى المشتركة، على جميع الجبهات التقليدية استمرت، وكنت أسمع دوي الانفجارات بشكل كثيف وعنيف.

وهذا ما دفعني إلى تسجيل خاطرة من وحي مشاهداتي، فقد لفتني اللاأخلاقية غير المحدودة التي ظهرت في هذه الحرب، والتي أظنها سبب انحطاطنا وتخلفنا، وقليل من رجال السياسة أو الفكر أو الدين يعير هذه الناحية ما تستحق من اهتمام.

فعمليات القنص التي يقوم بها رماة مهرة، يرمون كل شبح، مقاتلاً كان أو طفلاً، رجلاً أو امرأة، إنساناً أو حيواناً، صديقاً أو عدوّاً، لدرجة أن بعض الصحف نشرت أن قناصاً قنص أخاه من دون أن يعلم.

وعمليات السلب والنهب والسرقة التي تجاوزت كل الحدود، وشملت معظم الناس. فالناهب أو السارق لا يكتفي بسرقة المؤسسة أو المنزل بل يخرِّب ما لا يسرقه لأي سبب كان، وقد يدمِّر أو يحرق ما ترك.

وأكثر ما آلمني أن تتصرف بعض قوات الجيش السوري الذي دخل إلى لبنان كالميليشيات. فقد سرقت ونهبت حتى بعض أثاث المطار، وذلك من الأمور المشينة فالجيش الذي أعرفه كان يدفع ثمن ما يخرِّبه في أراضي الفلاحين، إن سبَّب لهم أذى بسيطاً في مناوراته.

ومن لا أخلاقيات الحرب الاعتداء على الأعراض، على الرغم من قلّة تلك الاعتداءات. والقصف العشوائي على الأحياء السكنية ما يسبب قتل أبرياء من نساء وأطفال وعجز، ومسوّغه عند مرتكبيه أن بعض المقاتلين كان يقصف منطقة آهلة فيرد الطرف الآخر بقصفها، ما يشبه الذي يحتمي بامرأة أو طفل ليتجنب لكمات خصمه، فيوقع الأذى بهم.

ومن لا أخلاقيات بعض الزعماء أنهم كانوا يتاجرون بالأسلحة لمكاسب شخصية، فيبيعونها لأنصارهم وأحياناً لخصومهم، وهكذا يتاجرون بوطنهم وأرواح مواطنيهم.

ومما كان يثير استغرابي ما ظهر من نظرة الموارنة إلى المسلمين. فقد نشأتُ في سورية، ولم أشعر يوماً بوجود فوارق بين الطوائف. وكان لي زملاء مسيحيون لم أعرف دينهم إلا بعد مدَّة من الصداقة، كما كان العمال في معمل والدي من مختلف الفئات والطوائف ولم أجد يوماً من أحدهم دسّاً على الآخر بسبب دينه أو طائفته.

ولما صدرت مذكرة الرهبانيات التي تتناول المسلمين بالسوء صدَّقت الذين شككوا في صحتها. ولكنني في هذه الأيام أسـمع من إذاعة الكتائب وإذاعة عمشيت إساءات إلى الإسلام وتوصيفات لا يقبلها عقل، وتسميات عجيبة غريبة مثل: السفيانيين، والشيوسفيانية، والسنطينية (سني فلسطيني)، وينعتون العرب بالحيوانات الذيـن يضعون الحلق في آذانهم... ويصفون العرب والمسـلمين بكلمات يخجل الإنسان من ذكرها، ويختلقون أموراً في الإسلام مشينة لا أصل لها. ومع ذلك كان يعزيني تذكر أصدقاء مسـيحيين وموارنة من أفضل الناس خلقاً وتعاملاً.

ولمن لا يعرف كيف نشـأت الجمهورية اللبنانية، وباختصار شديد: فقد كانت بلاد الشام تابعة للسلطنة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ونتيجة خسـارتها الحرب اسـتعمرت هذه البلاد. ومع نهاية استعمار سورية ولبنان كان هوى المسـلمين في لبنان الذي كان تعريفه جبل في بلاد الشام، الانضمام إلى سـورية البلد الأم، بينمـا كان المسـيحيون يفضِّلون الحماية الفرنسية.. ثم تمت صفقة بين زعماء الطرفين يتخلى بموجبها المسيحيون عن الحماية الفرنسية، ويتخلى المسـلمون عن الوحدة مع سورية ومع أية وحدة عربية محتملة، ويشكلون لبنان الذي عرفناه، أي أنشئ على سلبيتين والسلبيتان لا تشـكلان موجباً، وبخاصة أنه ركب بشـكل تولى فيه المسيحيون جميع المراكز المهمة بما فيها رئاسة الجمهورية حيث كان الرئيس يتمتع بصلاحيات واسعة لا توجد في أي نظام برلماني. وكان المسلمون يشعرون أنهم مواطنون من الدرجة الثانية.

وبتغير الأحوال، وتبدل الزمان، وتنامي الوجود الفلسطيني في لبنان تنبَّه المسـيحيون إلى خطر يهددهم وأرادوا الاحتفاظ بنفوذهـم، وبلبنانهم الذي ساهموا في تشكيله، بينما شعر المسلمون بقوتهم وأرادوا تحصيل حقوقهم. وبرز الحقد الدفين تاريخيّاً بين الدروز والموارنة، وكما ذكرنا سابقاً تدخلت عوامل خارجية مختلفة لخلق الفتنة واستمرارها. وتولى قيادة الجانب المسلم قائد درزي صلب ومحنك هو كمال جنبلاط. وقد ذكر جوزيف أبوخليل أحد قادة الكتائب ما قاله جنبلاط للأسـد صراحة، ونقله الأسـد إلى وفد كتائبي: «بعدما روى الأسـد ما كان بينه وبين كمال جنبلاط من كلام على الحسـم العسكري، وكيف أن جنبلاط قد أصر على هذا الحسم قائلاً له: خلونا نؤدبهم..

لا بد من الحسم العسكري، فمنذ مئة وأربعين سنة يحكموننا، بدنا نتخلص منهم...»[1].

ويبدو أن خوف الأسد من نشوء كيان مسيحي معادٍ، تدعمه «إسرائيل» والغرب، ويشكل مشكلة كبرى مؤذية لسورية والعرب، جعله يستدير مئة وثمانين درجة من داعم للقوى الوطنية والفلسطينية إلى محارب لها. وربما كانت الاستدارة لأسباب أخرى أجهلها منها تعليمات كيسنغر.

ولقد حالت سورية منذ بدء الأزمة اللبنانية سنة ١٩٧٥ دون تعريبها، وأخذت على عاتقها وحدها إنهاءها، لأسباب مختلفة تحدثت عن بعضها في بداية البحث، ولكنها لم تدرك تعقيدات «المسألة اللبنانية» وجذورها وحجم التدخلات فيها، وما ينصب لها من فخاخ في لبنان. وربما أدركت ذلك لاحقاً، ولكن متأخرة بعد أن سبق السيف العذل، كما يستنتج من تصريحات وزير الإعلام أحمد إسكندر. كما جاء تدخل الجامعة العربية متأخراً أيضاً، وبعدما «فلت الملق» كما يقول المثل.

ولإعطاء فكرة عما آلت إليه الأوضاع من فلتان، أذكر أنني كنت حاضراً حديث أخوين أمام أمهما وبعض الجيران، وكان أحدهما يغمز من قناة أخيه فيقول: إنه يأخذ جهاز اللاسلكي ويخاطب رماة مدفع «سبانسويزا ثلاث سبطانات» ويوجههم إلى منزل جميل بسقف قرميدي مدعياً وجود تجمع معاد في المنزل، فيفتحون النار على المنزل، ويخربونه، ولا يظهر أي أثر للمقاتلين فيه، ويكرر العملية مع منزل آخر... فيضحك أخوه ويرد بأنه يطرب لسماع صوت المدفع، وتتابع أزيز طلقاته... ولا حيلة مع مراهقين حملوا السلاح ولا يدركون نتائج أفعالهم. وهكذا كانت تمرُّ الأيام.

وفي أحد تلك الأيام، وقع علينا خبر في ٧٦/٠٧/٠٤ وقع الصاعقة، لغرابته وكارثيته، فقد قام جنود صهاينة بمهاجمة مطار عنتيبي، الذي كان يحجز فيه فدائيون من جبهة التحرير الشعبية أكثر من مئة رهينة إسرائيلية، وحرروا الرهائن بعملية خاطفة، قُتل فيها ـ كما أُعلن ـ جندي صهيوني ورهينتان، وأكثر من مئة جندي أوغندي، ودُمِّر المطار وإحدى عشرة طائرة على أرضه. ولم أستطع استيعاب كيفية قطع الطائرات المسافة بين الأرض المحتلة وأوغندا، والعودة من

(١) أبوخليل، جوزيف، قصة الموارنة في الحرب، م.س. ص٥٩

دون أن تشعر بها دول الجوار، أو تتصدى لها. وأذهلني أيضاً قلَّة خسائر المهاجمين... وعلمت لاحقاً أن المهاجمين انطلقوا بطائراتهم من كينيا المجاورة حيث اتخذوا من مطار نيروبي قاعدة لانطلاقهم.

ولن أسترسل في وصف يوميات الحرب وسأكتفي بوقفات عند أحداث عشتها وتستحق التسجيل، وأخرى نقلتها وسائل الإعلام.

ففي ٧٦/٠٧/١٢ أضاءت الكهرباء حيَّنا لأول مرَّة بعد انقطاع عشرين يوماً. وبعدها لعلع رصاص كثيف في الهواء، فظننته ابتهاجاً بعودة الكهرباء، ولكن كثافته ومدَّته دفعتني إلى النزول إلى الشارع لاستجلاء السبب من الشيوعيين الذين يحرسون منزل زعيمهم جورج حاوي المقابل لمنزلي. ولما سألت أحدهم عن سبب إطلاقهم النار وابتهاجهم، أجابني بفرح ظاهر أنه حدث انقلاب في سورية. فشككت في الأمر، لأن الانقلابات تحدث فجراً، لا مساءً...

ورجعت إلى منزلي لأتحقق من الأمر من إحدى الإذاعات، فلم تأت أي إذاعة على أيِّ خبر يتعلق بالموضوع.

وفي اليوم التالي سمعت صباحاً من إذاعة الكتائب المذيع يقول: شهدت العاصمة ليلة أمس إطلاق نار كثيفاً ابتهاجاً، بسبب إشاعة مفادها حصول انقلاب في سورية ضد نظام حافظ الأسد.

وهكذا كان المضلَّلون يطلقون النار لأي سبب كان، ويطربون بصوت الرصاص لأي إشاعة تتماشى مع أهوائهم. وأظن أن ثمن الرصاص الذي أطلق تلك الليلة يكفي لبناء مدرسة.

ومع ذلك فقد كان لتلك الأيام إيجابية ملحوظة. فقد كان اللبناني في المدن عموماً يتباهى بأنه لا يعرف جاره في البناية أو الحي، ويرى أن ذلك يمنحه أهمية، فهو أكبر قدراً من جيرانه، إما بالمنصب، أو بالغنى، أو بالعمل... متجاوزاً بذلك التعاليم الدينية، والقيم الإنسانية.

والحرب أعادت الناس ـ غير المحاربين ـ إلى إنسانيتهم، فشعر الجار بحاجته إلى جاره، ومعونته، ونجدته، وربما إلى التسلي معه. ولم يعد الاهتمام بالملبس والمأكل مهمّاً في الملاجئ وعلى سلالم البنايات، فتقاسم الجيران رغيف الخبز، وعلبة اللحم. وعادوا إلى طبيعتهم البشرية، إلا ما ندر.

وظهرت في شـوارع بيروت معالم الحياة البدائية، والبساطة في كل شيء. وتحضرني دائماً صورة سيدة تخبز على صاج أمام بناية حديثة من طوابق عدة، وقد استعملت أنصاف البراميل مواقد، ووضعت عليها الصواني مقلوبة لفقدان الصاجات التي ندر استعمالها، وتعلمت البنات المرفهات العجن والخبز، فالجوع كافر! والحاجة أم الاختراع.

فعندما يدمِّر الإنسان وسـائل الحضارة التي ينعم بها يضطر إلى العودة إلى الوسـائل البدائية، حتى في الحرب عندما تفقد الذخيـرة، يلجأ المتقاتلون إلى السلاح الأبيض والعصي والحجارة.

وقد أنعش التدخل السـوري جبهات القتال، وسـاعد المسيحيين على قلب هزائمهم انتصارات. ففي ٧٦/٠٧/١٢ حققت جبهة الكفور انتصارات عسكرية مهمة، فاجتاحت منطقة الكورة، وأخذت بالتقدم باتجاه طرابلس، في وقت كانت تتعرض فيه جميع المخيمات في لبنان للقصف بالمدافع الثقيلة والصواريخ، وبخاصة تل الزعتر المحاصر بإحكام منذ مدَّة، وباستثناء مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة.

ويشارك الجيش السـوري بالقصف الكثيف والعنيف، بينما تشارك قواته في القتال.

وفي ذلك الوقت أعلنت الجبهة المسـيحية نيَّتها تحريـر جميع الأراضي اللبنانية، تزامناً مع إعلان بيان تأسيس جبهة الاتحاد الوطني المؤلفة من رؤساء الوزراء السابقين، وريمون إدة، وبعض النواب المسيحيين، والذي تضمن دعوة إلى ضبط أعمال الفدائيين، وضمان عدم تدخلهم في الشـؤون اللبنانية، مع أن بعـض اللبنانيين هم الذين ورطوا الفلسـطينيين واسـتقووا بهـم. ولاريب أن الفلسطينيين أخطؤوا بانغماسهم في الشؤون اللبنانية.

في هذه الظروف اجتمع مجلـس الجامعة العربية، وظهر مـن مقرراته أن المجتمعين اختلفوا كعادتهم، فأعادوا تكليف أمين عام الجامعة محمود رياض بمتابعة جهوده...

فكتبت في أوراقي: يلاحظ مما ينشر في الصحف أن جميع الشركات تنهي عقود موظفيها، وأن المدارس لا تجدد عقود أساتذتها. لذلك بدأ يشغل تفكيري خطة للمستقبل على الصعيد العائلي وعلى صعيد العمل، وأتساءل عما إذا كنت سأواجه تشرداً جديداً، وعملاً جديداً في بلد آخر.

انسحاب القوات السورية من بعض المواقع

وفي ٧٦/٠٧/١٤ انسحبت القوات السورية من الهلالية وعبرا المطلتين على صيدا، ففرح اللبنانيون والفلسطينيون، وأثناء زيارة لي من أحد العاملين في المطابع أخذ يشرح لي بسرور واضح كيف تصدوا للدبابات السورية ت٦١ ودمروا عدداً كبيراً منها في مصيدة أحسنوا نصبها أو كمين.. فلم أتمالك نفسي أن قلت له: إنك تزعجني بهذا الحديث، فلا يسرني إعلامي بأن الدبابات التي دفعت ثمنها أنا وأهلي وأبناء بلدي تدمر أو تحرق بأيد عربية، ولا يسرني أن جنوداً قد يكون بينهم أخي أو ابن عمي أو ابن أحد أصدقائي أو غيرهم يقتلون، وحزني عليهم كحزني على أبناء صيدا والفلسطينيين.

وجلست بعد ذهابه أفكر بمقدار الخسارة في الأرواح وفي قيمة العتاد الذي دُمِّر أو حرق، وقيمة مصفاة الزهراني التي أحرقت، وسجلت في أوراقي: ياليتني متُّ قبل هذا، فكما يقول المثل: لا عين ترى ولا قلب يحزن.

وبدأت تراودني أفكار شتى، فما الذي يدفعني إلى البقاء في لبنان وحيداً، بعيداً عن أهلي وعائلتي! وكل دقيقة فيه تحمل لي الموت أو الإصابة. ولماذا أتحمل كل هذا البؤس وعناء الوحدة؟ فحتى إذا نزلت إلى الشارع أجده فارغاً إلا من بعض الوجوه الكئيبة الحزينة. وأترك للقدر وحده أن يعينني، فليس باليد حيلة فما زال الحكم عليَّ في سورية سيفاً مصلتاً على رأسي. والأسى يخفِّض المناعة فأصبت بإنفلونزا أرهقتني أياماً.

وكان يقيم معي في البناية ذاتها عبد الكريم النحلاوي قائد انقلاب ٢٨ أيلول ١٩٦١ بعد أن سفَّر عائلته أيضاً، وكان ملاحقاً غير محكوم في سورية، فكنا نمضي كثيراً من الأوقات معاً. وفي ٧٦/٠٧/٢٨ بعد العصر كنا نجلس معاً على أريكة في شرفة بيتي، ومن جملة الحديث كان يتذمر ويشكو كيف سنمضي رمضان وحيدين من دون عائلتينا، وأنا أهوِّن عليه الأمر، فإذا بابنة الجيران تناديه من الطابق الثالث: أم خالد (زوجته) تسأل عنك. فأسرع بالنزول من الطابق الرابع إلى الطابق الثاني، ليعود بعد دقائق ويقول لي: إن أم خالد جاءت لتعلمه بأن حكمت الشهابي رئيس أركان الجيش السوري، وكان النحلاوي مدرِّبه تحدث مع الأسد بخصوصه فسمح له بالعودة إلى سورية، وهو سيغادر فوراً، إذ مع زوجته نسخة عن البرقية التي تسمح له بالعودة إلى سورية، وأنه فور وصوله سيتحدث في موضوع السماح

لي أيضاً بالعودة، ولا أعلم حتى الآن شـيئاً عن ذلك وما حصل. فلم أسـأل، ولا أريد أن أتكهن. وقد سررت لأجله بعدما عانى من تشرد ١٤ عاماً.

وبعدما تركني وذهب إلى بيته، وكانت الشمس قد غابت عن منطقتنا وأخذ الليل يزحف بطيئاً ثقيلاً، شعرت بأسىً شديد وحزن بالغ، ودار في ذهني أن الكبار والصغار والمضلَّلين، انتهت مشاكلهم مع النظام السوري، فلماذا لم تنته مشكلتي؟ ولماذا كل هذا الحقد عليَّ؟! وقد مضى على تشردي اثنا عشر عاماً، وتركت العمل السياسي منذ سنوات وتفرغت للعمل الثقافي... وتذكرت أيام السجن وكيف كنا نسرُّ للإفراج عن أي زميل، ويحزن كل منا في قرارة نفسه أنه لم يفرج عنه.. وذهب تفكيري إلى عائلتي، ومرَّ في خاطري أنـه ما المانع من حضورها لبعض الوقت بعد فتح الطريق.

وبعد ساعة من توارد الخواطر المختلفة شـعرت فجأة بقوة وثقة بالنفس، وانشراح في الصدر، وأمل بالمستقبل، وبأن الله لن يضيعني، وأنا الذي اعتدت حسـن الظن بالله تعالى واللجوء إليـه في كل أموري. فقمـت لأتوضأ وأصلي المغرب بعد أن تأخرت إلى آخر الوقت، وإذا بالباب يقرع، وبجارتنا تبشـرني بمجيء أم شاكر (زوجي)، فظننت لأول وهلة أنها جاءت تبشرني بما بشرت به أم خالد زوجها، وظننت أن النظام السـوري غيَّر سياسـته، ولكن لما وصلت ولاحظت أن ابننا نضال معها، أدركت أنه لا جديد بالنسبة لي، وعرفت لاحقاً أنها جاءت بالصدفة مع أحد الأصدقاء الذي زار الأهل في دمشق قبيل مغادرته إلى بيروت. فطلبت منه أن يصحبها معه، من دون ترتيب سابق..

ولم يبق جهة خارجية لم تتدخل في الحـرب اللبنانية. فمن الدول العربية: سـورية والعراق ومصر وليبيا والسعودية بشـكل رئيس، ومعظم الدول العربية الأخرى بنسـب أقل، ومن الدول الأجنبية: الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وروسيا بشكل رئيس، وبعض الدول الأخرى بنسب أقل.

وكما ذكرنا سابقاً كانت بعض التنظيمات الفلسطينية تتبع لدول عربية تنفق عليها وتفرض عليها سياسـاتها. ومع ذلك بقيت «فتـح» أقواها وكانت تناضل برئاسة عرفات لاستقلال القرار الفلسطيني.

وأما على الصعيـد اللبناني فظهرت تجمعات سياسـية منهـا في الجانب المسيحي «الجبهة اللبنانية»، وميليشيات مختلفة منها: ميليشيا حزب الكتائب،

ثم القوات اللبنانية برئاسة بشير الجميل ابن رئيس الكتائب الشيخ بيير الجميل، ونمور الأحرار برئاسة داني شمعون التابعة لحزب الأحرار برئاسة كميل شمعون، وحراس الأرز برئاسة المتطرف إتيان صقر.

وفي الجانب الإسلامي ظهر تجمع سياسي باسم قمة عرمون، نسبة إلى منطقة عرمون، القريبة من بيروت، والتي كان يقيم فيها يومئذ الشيخ حسن خالد مفتي لبنان، والاجتماع في بيته.

أما أهم الميليشيات في الجانب الإسلامي فكانت ميليشيا الحزب الاشتراكي برئاسة كمال جنبلاط، وقوامها عناصر درزية، والمرابطون، وهو تنظيم سني برئاسة قليلات، ابن وجيه بيروتي، وظهر في الحرب. وجيش لبنان العربي، وبعض التنظيمات المحلية الأصغر، بالإضافة إلى تنظيم حركة أمل الشيعية، التي أسسها الشيخ موسى الصدر.

وكنا ننام على تصريح مطمئن ونستيقظ على معركة. في حين كانت الساحة العربية تشهد تحركات واجتماعات متتالية في محاولة لإنهاء الحرب اللبنانية.

مجزرة تل الزعتر

ومع ذلك وفي خضم السعي لإيقاف القتال حدثت مجزرة تل الزعتر التي تعدُّ من أسوأ ما حصل في الحرب اللبنانية، ولا تفوقها بشاعة إلا مجزرة صبرا وشاتيلا التي حدثت بعد سنوات. وتل الزعتر مخيم لا تزيد مساحته عن كيلومتر مربع واحد، أنشئ مع وصول اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان سنة ١٩٤٨، ويقيم فيه لاجئون فلسطينيون وكثير من فقراء لبنان.

ولأنه في منطقة مسيحية كانت تحدث إشكالات بين الفدائيين الفلسطينيين فيه، وعناصر مسيحية. ومع بداية العام ١٩٧٦ خضع إلى حصار كان يزداد شدَّة مع تقدم الأيام، وبحسب ظروف الحرب، حتى وصل الحصار إلى حدٍّ قطع الماء والكهرباء عنه، بهدف إزالته من المنطقة التي يحتلها، ولكن الحصار لم يكن كافياً لإزالته ويصعب اقتحامه لوجود فدائيين مدربين يدافعون عنه، فخضع لقصف مدفعي وصاروخي كثيف لعدة أيام، شارك فيه مدفعية الكتائب، وحراس الأرز والجيش السوري، لدرجة قيل إنه سقط عليه خمسة وخمسون ألف قذيفة، حتى فقد إمكانية الصمود والمقاومة.

وعندها في ٧٦/٠٨/١٢ اقتحمته قوات الكتائب وحراس الأرز وعملت فيه ذبحاً وتقتيلاً وتمثيلاً بأبشع الطرق وأقذرها، وقيل إن حصيلة تلك المذبحة بلغت ٤٢٨٠ قتيلاً أغلبهم من المدنيين، وبعد القضاء على جميع المقاتلين فيه باشرت الجرافات بإزالة المخيم من الوجود، وانتهى أمره في ١٩٧٦/٠٨/١٤.

تدخُّل الجامعة العربية

وكانت جامعة الدول العربية قد توصلت في ٧٦/٠٨/٠٥ إلى اتفاق لوقف القتال وقفاً شاملاً، ووقف الحملات الإعلامية، ومراقبة وقف إطلاق النار من قبل قوات أمن عربية، وحددت نقاط المراقبة، وأخذ المراقبون مواقعهم. وحددت عناصر قوات الردع العربية وطريقة دخولها. ومع ذلك لم يتوقف القتال بشكل كامل وسقط مخيم تل الزعتر بالطريقة التي ذكرناها.

فعقد مؤتمر قمة عربي غير عادي في الرياض في ١٦ ـ ٧٦/١٠/١٨ وحضره إلياس سركيس وياسر عرفات، بالإضافة إلى الملوك والرؤساء العرب، وصدرت عنه قرارات مهمة للحفاظ على وحدة لبنان واستقراره، وعلى منظمة التحرير، مع مراعاة تنفيذ اتفاق القاهرة الشهير الذي تحدثنا عنه سابقاً.

وتلا هذا المؤتمر مؤتمر القمة العربي العادي الثامن الذي عقد في القاهرة ما بين ٢٥ و٧٦/١٠/٢٦. وتابع دراسة الأزمة اللبنانية، وصادق على قرارات مؤتمر الرياض. وأن تساهم الدول العربية بإعادة إعمار لبنان، وتأكيد التزام الملوك والرؤساء العرب بقرارات مؤتمرات القمة ومجلس الجامعة بهذا الشأن، وإنشاء صندوق خاص للإنفاق على متطلبات قوات الأمن العربية في لبنان، بالإضافة إلى قرارات أخرى[1].

وأدى تدخل الجامعة العربية وقراراتها العملية إلى بدء الانفراج ما أتاح لي العودة إلى تسجيل بعض المعلومات التي تهم المؤرخ مستقبلاً، وعالم الاجتماع الذي يدرس أوضاع المجتمعات وخصائصها، وما يطرأ عليها، كما تهم المحلل السياسي والمفكر. وهذا بعض ما كنت قد سجلته:

... فمع أنني أقدر للرئيس في ذلك الوقت سليمان فرنجية كلمته في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤ باسم العرب، واقتبست منها مقطعاً في إحدى كتاباتي،

---

(١) ينظر النص الكامل في الساطع، أكرم، تاريخ ووثائق، م.س. ص٣٤٥ وما بعدها.

فقد سـجلت عجبي من تصرفه في ٧٦/٠٩/١٥ إذ أصدر مرسوماً قبل نهاية ولايته بأسبوع أدخل بموجبه وزيراً جديداً في الوزارة هو جورج سكاف من زحلة، وعين كميل شمعون رئيساً للوزراء بالوكالة، وأعاد توزيع الحقائب الوزارية بحيث جمع لشـمعون وزارات الداخلية والخارجية والدفاع. فـكان تصرفه مذهلاً بعيداً عن الحكمة وحسن التقدير من وجهة نظري. وأدركت أهمية توافر الحكمة لدى من يتولى أمور البلاد وحكم العباد، وبخاصة إذا كان يمتلك سلطات واسعة، فربما لم تكن لتحـدث الحرب الأهلية في لبنان أو لكانت أخـذت غير منحى لو أن زعماء الموارنة أدركوا التغيرات التي حصلت في المجتمع اللبناني والعربي في ذلك الوقت. ولفت انتباهي فيما سجلته خبث الرئيس الأسد وحكمته التي تجلت في سـحب قواته، إذ سـمعت من مقاتلين يومها في المنطقة الغربية أنه عندما توغلت القوات السورية ترك بعض الجنود السوريين مواقعهم والتحقوا بقوات الحركة الوطنية. ولم أستطع التأكد من ذلك بنفسي.

ولكن ما أكده كثيرون أن أكثرية الجنود السـوريين كانـوا يطلقون النار في الفضاء، ويوجهون قنابل أسـلحتهم الثقيلة إلى أماكن خاليـة، فلا تدمر منزلاً ولا تقتل مواطناً.

وذكر لي أحد سكان الجبل في المنطقة الدرزية، أن ثلاثمئة قذيفة سقطت في أرض بور قرب كيفون مساحتها لا تزيد عن خمسمئة متر مربع، ما يدل على دقة الرمي وتوافر المهارة في الرمي لدى الجنود، وتقصدهم عدم إيذاء أحد، أو هدم منزل. وفي ذلك دلالة واضحة على الروابط بين الشـعبين وأن رغبات الساسة وسوء تصرفهم هي التي تفرق بين الشعوب العربية، وأظن أن ذلك لفت الأسد وجعله يعيد حساباته.

ومما سجلته كثرة عمليات الخطف والسرقة واحتلال بيوت الآخرين الغائب أصحابهـا، للإقامة فيها أحياناً أو لإسـكان من فقد بيته أو هجر منه، ولسـرقة ما تحويه أحياناً أخرى.

ومع ذلك فقد روى لي صديق أنه يرى من شـرفة منزله رجلاً يجلس على حصير على الأرض بشكل دائم في شقة مواجهة لبيته الذي تركه سكانه، مع أن البيت مفروش فرشاً كاملاً، ما أثار فضوله، فسأل عن قصة ذلك الرجل، فأذهله ما سـمعه، وهو أن الرجل فقد منزله، فأسكنته إحدى المنظمات هو وعائلته في

تلك الشقة. وبما أنه يسكن في بيت رجل غائب ولم يستأذنه في السكن فيه، فهو حريص على عدم استعمال أي أداة في المنزل إلا في حالة الضرورة القصوى. فأدركت أنه مهما بلغ سوء الأخلاق وطغى في أي شعب من الشعوب لا يخلو من قلَّةٍ تشكل منارات في ذلك الشعب.

وأما الصورة الأخرى التي لا تزال في ذاكرتي، فهي صورة رجال ونساء وأولاد استغلوا فرصة الفراغ الأمني بين ترك عناصر المنظمات الحواجز والأماكن التي يشغلونها وبين استلامها من قبل قوات الردع، فزحفوا كالجراد على المحلات والمخازن التي لم تسرق حتى ذلك التاريخ فأفرغوها من محتوياتها.

ثري الحرب

وقد سجلت صورة ثري الحرب كما وضحت لي في الحرب اللبنانية، ولماذا يطلق الناس على كل ثري تافه يظهر بعد الحروب صفة «ثري حرب» ويحتقرونه، ويتهكمون عليه..

فقد كنت أظن أن ثري الحرب تاجر فاشل، لديه بضائع مكدسة وفقدت نتيجة الحرب، فازداد الطلب عليها وارتفعت أسعارها فاستغل التاجر الوضع وجنى أرباحاً فاحشة أثرته. ولكن ما تبين لي أن هذه الصورة هي أبسط صورة لثري الحرب وأنقاها. وقلائل الذين يغتنون بهذه الطريقة وحدها.

أما حقيقة ثري الحرب فهي أنه إنسان بلا أخلاق، لا يحلل ولا يحرم، يروج المسروقات، ويهرب مختلف المواد، ويحتكر الطعام، ويتاجر بالدماء، فيبيع الأسلحة لمن يطلبها من الفرقاء المتصارعين، وينقل المعلومات ويبيعها، ولا يتورع عن عمل أي شيء في سبيل المال. فإذا وضعت الحرب أوزارها ظهرت عليه علائم الثراء، وأخذ يتصرف بتعالٍ على الناس.

ومما لاحظته أن النساء لا يتمالكن أعصابهن عند القصف، وكذلك بعض الرجال. وازدادت تلك الظاهرة بعد مقتل جارة صبية تقيَّة نقيَّة، في بناية مقابلة لبنايتنا. وقفت تصلي العشاء بعدما أغلقت «أباجور» نافذة غرفتها الخشبية، فسقطت قذيفة هاون على شجرة وانفجرت مقابل النافذة، فانطلقت منها شظية صغيرة، اخترقت «الأباجور» واستقرت في قلب المرأة. ومع ذلك كان معظم

النســاء إذا توقف القصف خرجن في زياراتهن المعتــادة، وكثيراً ما رجعن من الشارع يرتجفن إذا سمعن قصفاً. وكذلك أكثر الرجال خوفاً أثناء القصف يخرجون إلى الشارع، بينما أكثرهم هدوءاً ربما مكث في مكانه لساعات طويلة لا يغادره إلا لضرورة بوجود القصف أو بتوقفه.

وبما أنني أقيم في منطقة خاضعة للحزب الاشتراكي، فقد سألني أحدهم عند بدء دخول القوات الســورية، لماذا لا أنضم إليهم في مقاتلة الجيش الســوري المتقدم؟ فكان السؤال محرجاً، ولم أشأ الإفصاح عما يدور في خلدي، فقلت له: إنكم أنتم وهم اشــتراكيون. وصراعكم صراع الإخوة في أســرة واحدة، وغداً تتصالحون. أما أنا فلست اشتراكيّاً.

ولما شعر الحزب بخسارته المعركة، وأن السوريين سيدخلون المنطقة جاءني أحد المسؤولين من الجيران يعرض عليَّ تهريبي، إذ كان يعرف أنني من معارضي النظام فشكرته، وقلت له: إنهم يعرفون أنني تركت العمل السياسي فلن يتعرضوا لي. ولكن في الواقع كنت خائفاً أترقب، وأتجنب الظهور كثيراً.

ولما هدأت الأوضاع، وبدأ السوريون يترددون على لبنان ومنهم محمد الخطيب الذي أصبح وزيراً للأوقاف لاحقاً. وهو إنسان مثقف، خلوق، خدوم. تعرفت عليه بوساطة صديق مشترك، هو سعيد العبار، نائب منطقتنا عن ريف دمشــق في البرلمان الســوري. وأنشــأ دار نشــر في لبنان، وكانت مكاتبنا متجاورة. وأعرف منه أنه بين الخطيب ورفعت الأســد صداقة قوية، ويعمل معه. وتعود صداقتهما إلى يوم كان الخطيب مدير ناحية في الشمال السوري، وكان رفعت موظفاً عنده. ولأنه كان طيبــاً معه فهو يردُّ له الجميل. فالتقيت الخطيب وطلبت منه أن يسأل رفعت أو يفهم منه ما موقفهم مني. فقال لي سأسأل الرئيس ذاته، فأنا ألتقيه باستمرار، وإن أردت أكتب عنك طلباً وننهي قضيتك؟ فلم أمانع. ورجع بعد أســبوع وأخبرني أنه ســأل الرئيس فقال له بالحرف الواحد: إن لم يقرِّبوا نحونا فلن نقرِّب نحوهم، يقصد أنا وأمثالي. ولم يتطرق لموضوع إنهاء القضية ففهمت الوضع، وعرفت أن سياستهم تركي أعمل بشرط عدم التعرض للنظام السوري قولاً أو عملاً، وكان الالتزام كاملاً من الطرفين مــدَّة طويلة خالفهــا بعدها أحــد الفروع الأمنية ســنة ١٩٩٧، وسأتحدث عما حصل في موقعه.

وبدأ اللبنانيون يغيِّرون مواقفهم، وغدت إذاعة عمشيت، التي كانت تشتم العرب ليل نهار، تمجِّد العروبة وتعدُّها حضارة بعدما كانت تصفها قذارة. حتى بعض الجيران والمعارف تغيرت مواقفهم.

اختطاف ابن الجيران

تحدثت سابقاً عن حوادث الاختطاف الكثيرة أثناء الحرب ولأسباب متعددة، منها الخطف بغية الحصول على فدية. وقد عشت إحدى حوادث الخطف لحظة بلحظة.

فقد كان الشاب نظير يعيش مع خاله وخالته، جيراننا في البناية، وبينما كان يقود سيارة والدته وبجانبه أحد أصدقائه، أوقفه مسلحون، فهرب صديقه، وقاد السيارة أحد المسلحين وفيها نظير. أما صديقه فجاء إلى بيت خالته ليعلمها بما حصل لنظير. فوقع علينا الخبر وقع الصاعقة، وبدأنا نناقش ما يجب علينا فعله. وبدأ خاله اتصالاته بكل من يظن أنه يمكنه المساعدة في معرفة مكان المخطوف أو إنقاذه.

وفي المساء رن جرس الهاتف في بيت خالته، وقال المتحدث: ابنكم عندنا، وإن أردتموه حيّاً حضِّروا ستة آلاف ليرة وانتظروا هاتفاً منا غداً. فحاولت خالته إطالة الحديث عساها تكتشف شيئاً، فقال لها: اعلمي أنني مسيحي، وسأقتل الولد إن حاولتم أي شيء. وأغلق خط الهاتف، ما جعلنا نخمن أنه غير مسيحي، وأن المخطوف في المنطقة الغربية فهو خطف فيها، ويصعب نقله إلى الشرقية.

وجرى إعلام جميع الجهات والمنظمات والأجهزة التي يمكن أن تساعد في كشف العملية، وكلها بذلت أقصى جهودها من دون الحصول على أية معلومة.

ومع بزوغ شمس اليوم التالي رنَّ جرس الهاتف هذه المرة في بيت والدة المخطوف البعيد عن بيت أختها، وبعدما تأكد المتصل أنه يتحدث مع والدة الضحية قال لها: أحضري ستة آلاف ليرة إلى التيرو في تمام الساعة الحادية عشرة واستلمي ابنك والسيارة وأنهى المكالمة. فأسرعت الأم بالمجيء إلى بيت أختها لتعلم أختها وأخاها بالاتصال.

وفوراً أعلمت جميع الجهات المهتمة بالموضوع، ونصبت كمائن في الطريق المؤدي إلى التيرو على طريق المطار، وأخضع محيطه إلى المراقبة، وتهيأت عدة دوريات بانتظار الساعة الحادية عشرة، ساعة التسليم والاستلام، بينما اختفت الأم قبل الموعد بساعة.

قالت الأم بعد عودتها هي وابنها بالسيارة في الساعة الثانية عشرة: ذهب انتباهي، وأنتم تقومون بالإجراءات لمحاصرة التيرو على طريق المطار إلى التيرو الموجود في فرن الشباك، في المنطقة المسيحية، فأخذت المبلغ المطلوب، وذهبت بسيارة تاكسي إلى منطقة المتحف، نقطة الفصل بين المنطقتين، ومن هناك اتجهت سيراً على الأقدام باتجاه فرن الشباك. فوجدت سيارة كأنها تنتظرني، فسألني الشبان فيها: هل أنت والدة نظير؟ فقلت: نعم. فقالوا: اركبي معنا، وأخذوني إلى التيرو. وهناك وجدت رجلاً بشاربين يجلس في صدر المكان، بادرني بالقول: هل أحضرت المال؟ قلت: نعم. قال: أعطني إياه، فناولته المال، فأخذه زميل له يريد عدَّه. فمنعه من ذلك وقال له: «معدودين».

ومما قاله نظير، الشاب المخطوف الذي كان ينتظر والدته عارياً في إحدى زوايا المكان المعتمة، ينتظر القتل لولا قدوم والدته، قال:

بعدما سارت بي السيارة قليلاً عصب الخاطفون عينيَّ فلم أعد أرى شيئاً. وعندما وصلوا إلى المنطقة الفاصلة بين المنطقتين سمعت أصوات الرصاص تلعلع في الفضاء. فقال أحد الخاطفين لزميله: «غيّر الزمور». وسمعت صوت «زمور» خاص غريب. وتوقف إطلاق النار، فعرفت أنهم اجتازوا بي من المنطقة الغربية إلى المنطقة الشرقية.

رويت هذه القصة لأنني حضرتها بتفاصيلها، ولكن قصصاً كثيرة مثلها وأسوأ منها تثبت وجود عصابات ودكاكين ترفع شعارات سياسية كاذبة بينما تقيم شراكات بين عناصر في المنطقتين تشعل محاور القتال وتطفئها لتمرير تهريبة أو مخطوف، أو حتى لذهاب قائد أحياناً من الغربية إلى الشرقية للقاء صاحبته وبالعكس.

مصادرة منزل صديق

كنت منذ تدمير مكتبي في المنطقة التجارية، أداوم كل يوم ساعات قبل الظهر في مكتب المجلة العربية لأتابع الإشراف عليها، واستمريت على تلك الحال بعد سفر رئيس تحريرها الدكتور منير العجلاني، ومغادرة العاملين فيها بسبب الحرب. وكان العجلاني أسكن في منزله في شارع فردان في المنطقة الغربية للحفاظ عليه موظفاً يعمل عنده في المجلة وعائلته.

ومع دخول قوات الردع العربية، جاءني ذلك الموظف مذعوراً ليعلمني بأن عدداً من الجنود أخرجوه وعائلته من المنزل، وأقاموا فيه.

تركت المكتب وتوجهت فوراً إلى المنزل، وكان الباب مفتوحاً، وفي صالة الشقة أربعة أو خمسة جنود. فسألتهم من أنتم؟ فأجابوا أنهم من جيش لبنان العربي. فقلت لهم: كيف تخرجون الرجل من البيت وترمونه وعائلته في الشارع؟ فقال رئيسهم: لقد تحققنا أنه لديه بيت، ويقيم في منطقة كذا، وبناء على ذلك صدر أمر بمصادرة هذه الشقة لصالح الضابط (أ.ق). ولاحظت تداولاً بين بعضهم، وبدا لي استياؤهم من طريقة كلامي، وربما تبينوا خطأهم في إعطائي تلك الأجوبة. فلم أترك لهم الوقت لكي يقوموا بأي تصرف وخرجت مسرعاً خائفاً من اعتقالي، وبدل اللحاق بي على الدرج خرجوا إلى شرفة المنزل ينادون عليَّ أن أتوقف، فلم ألتفت إليهم وأسرعت بركوب سيارتي والانطلاق إلى منزلي، لأعلم عائلتي وأقوم بما يمكنني فعله.

وقبل إعلام زوجي بما حصل معي بادرتني هي بإعلامي أنها تلقت تهديداً هاتفيّاً من محتلي البيت، ويطلبون منها تحذيري من القيام بأي إجراء أو تصرف ضدهم. فسألتها: وماذا قلت لهم؟ قالت: شتمتهم وتحديتهم أن يفعلوا شيئاً لك، وأغلقت الهاتف في وجههم. ولم أعرف من أين جاءتها تلك الجرأة لأنها عادة تخاف كثيراً، ولكنها ردَّة فعل امرأة ومن دون تفكير.

فجلست أفكر بما أستطيع فعله، فأنا مبتعد عن جميع الأحزاب والمنظمات من جهة، ومن جهة أخرى أعرف قيمة موجودات المنزل وأهميتها بالنسبة لزوج العجلاني بخاصة، ففيه بعض مفروشات يوم زفافها ومنها مقاعد صدفية مشغولة يدويّاً، وإن مكثوا في البيت أفرغوه من محتوياته.

فخطر لي أن الدكتور منير سعودي الجنسية، وللسعودية الدور الأول في إيقاف القتال، وتشارك في قوات الردع العربية. وسفيرها علي الشاعر يعرف العجلاني، ويعرف مركزه في المملكة، فإن عرف بالأمر لن يدخر وسعاً في المساعدة لحل الموضوع. وبحكم عملي في المجلة تعرفت على صديق للعجلاني شهم محب له، وأصبحنا صديقين، وأعلم أنه على صلة بعلي الشاعر ويستطيع الاتصال به عند الحاجة.

فاتصلت به هاتفيّاً، وأعلمته بالأمر، وأعطيته التفاصيل كاملة وما عليه القيام به. فما هي إلا ساعات قليلة حتى اتصل بي وأعلمني أن أذهب إلى البناية

لاستلام الشقة. وكان الوقت عصراً، فوصلت إلى أمام البناية مع وصول دورية من منظمة فتح التي تنفق على جيش لبنان العربي وتدعمه.. ونزل من السيارة شاب ضخم الجثة هو رئيس الدورية، وتقدم مني مبتسماً يسلم علي، إذ عرفته من يوم كان معيداً في مدرسة ابني تمام، وتبادلنا حديثاً مختصراً عن دوره في المنظمة ثم قال تعال استلم الشقة، فقلت: وإن رفضوا فضحك وقال بثقة الآن سيتركون الشقة فوراً وإلا رميتهم منها.

وبالفعل ما أن طلب منهم المغـادرة بناء على أمر من المنظمة حتى غادروا وسلمني مفتاحها، ولم ينقص من موجوداتها سوى خنجر لا أعرف قيمته. ولاريب أن القضية حلَّت بتوفيق من الله ﷻ وبسهولة لم أتوقعها. وأسكنت في الشقة شابّاً شهماً شريفاً من منطقة عكار في شمالي لبنان يعمل في دار نشر لأصدقاء لي بعد تركه الخدمة في الجيش، ويعرف الجنود الذين كانوا في الشقة، وحاولوا مساومته كثيراً على العودة إليهـا، فكان يهددهم ويرفض التطـرق إلى الموضوع معهم، وحافظ على محتوياتها كاملة، وبقيت في عهدتي سنوات حتى عادت الأوضاع إلى طبيعتها.

السفر إلى الكويت

كنت قد أرسلت الأولاد إلى بيت جدهم في دمشق، ليتابعوا دراستهم في مدارسها فور إغلاق المدارس في لبنان سنة ١٩٧٥، بينما كانت أم شاكر تمضي وقتها بين بيروت وبين دمشق. ومع دخول قوات الردع وفتح المطار أحسست برغبة في تغيير جو الحرب، والقيام بعمرة منفصلة عن الحج، لأن الإنسان في زحمة مناسك الحج، وكثرة الناس، لا يشعر بالروحانية التي ينشدها عادة في عبادته.

وكذلك كان عليَّ تجديد الاتصال بالزملاء والعملاء في السعودية والكويت وإعلامهم بالعودة إلى العمل.

وكانت إحدى أخواتي (هيام) تقيم مـع زوجها في الكويت، كما كان أخي مأمون الذي لم أره منذ سـنوات قد انتقل من الولايـات المتحدة إلى جدَّة في السعودية ليتولى إدارة شركة للأبنية الحديدية مسبقة الصنع. وأنا بشوق لرؤيتهما. وارتأيت أن أبدأ رحلتي من الكويت.

كان موعد إقلاع الطائرة من بيروت الثالثة والنصف بعد الظهر. واتفقت مع صديق يوصلني إلى المطار في الســاعة الثانية. وقبل الموعد بخمس دقائق قرع جرس المنزل، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما فتحت الباب، إذ فوجئت بصديق آخر (سهيل ديب) يقول لي: جئت من دمشق لأوصلك إلى المطار، وهو سوري مسيحي حسن الطرفة. ويبدو أن الأهل في دمشق أبلغوه بسفري.

فخرجنا معاً في سيارته، وكانت الطريق إلى المطار ميسَّرة، فلا زحمة سير، ولا وقوف طويلاً على الحواجز الثلاثة الموزعة على الطريق.

وفي المطار منعوا المودِّعين من الدخول كما كانت العادة، فدخلت وحدي، ووزنت حقيبتي وعدت إلى الخارج لأمضي الوقت الباقي للإقلاع مع صديقي.

ولما سمعت النداء المعتاد ودعته وتوجهت إلى قاعة الانتظار، فكان التفتيش دقيقاً وجسديّاً لجميع المسافرين. وعند التوجه للصعود إلى الطائرة، كانت حقائب المسافرين التي سلمت للشحن مصفوفة في فسحة أمام سلَّم الطائرة، وطُلب من كل مسافر أن يتعرف على حقيبته، وبعدها يصعد إلى الطائرة بينما تؤخذ حقيبته إلى قسم الأمتعة في الطائرة. وكانت هذه أول مرة أرى فيها هذا الإجراء..

ولما انتهى صعود جميع المسافرين بقيت حقيبة في الساحة، فحملها موظف وصعد بها إلى الطائرة يطوف على الركاب سائلاً عن صاحبها.. وكان تصرفه في منتهى الحماقة، فذلك الوقت هو الأفضل لتفجيرها، ما أفزع الركاب وأخافهم، فأخذوا يلحُّون عليه بالإسراع والخروج من الطائرة. ولما وصل إلى آخر الطائرة ولم يتعرف أحد على الحقيبة أســرع أحد الحمالين وأخذها بينما بدأت الطائرة بالتحرك بعد تأخر نصف ساعة.

استغرقت الرحلة من بيروت إلى الكويت ساعتين وعشرين دقيقة. وفي مطار الكويت، وبينما كنت أختم جواز ســفري فوجئت بابني أختي (محمود ومهند) الصغيرين يسلمان عليَّ بعدما تسربا من خلال قضبان الحاجز الذي يفصل بين القادمين والمستقبلين.

وبدا السرور واضحاً على وجهي أختي وزوجها، بعد طول انقطاع والخروج سالماً من ويلات الحرب التي كانا يسمعان أخبارها. وهكذا بدأت زيارتي الكويت مساء وقفة عيد الأضحى المبارك في ١٩٧٦/١١/٣٠.

وأثناء وجودي في الكويت زرت وزارة الأوقاف، وكانت تشتري الكتب من الناشرين، وعدداً من المكتبات ودور النشر. وقد كان الجو بارداً من دون أمطار خلال مدة إقامتي. ولاحظت أن أسـعار الحاجيات معتدلة، لكن إيجار المنازل مرتفع جدّاً، فالمنزل المؤلف من غرفتين وتوابعهما قد يصل إيجاره الشهري إلى ١٢٠ ديناراً. ولفتني عدم تبليط الأرصفة أو رصفها ما يجعل الغبار لا يطاق. كما لاحظت انغلاق المجتمع الكويتي على نفســه على الرغم من كثرة العرب في الكويت. وتعيش جالية كل بلد وتختلط بعضها مع بعض، كما يختلط العرب من ســوريين وفلســطينيين ومصريين، ولكنهم لا يختلطون اجتماعيّاً بالكويتيين. وأدهشني ما سمعته أنه توجد مناطق خاصة بالكويتيين، ولا يجوز لغير الكويتيين ســكناها. وإن ســكنها عربي غير كويتي، يحق لأي كويتي تقديم شكوى إلى الجهات المختصة فتأمر بإخلاء المأجور. ولاحظت وجود أبنية فخمة جميلة في مناطق مثل المباركيــة، والعليا.. ولأول مرَّة أحضر ســينما فــي الهواء الطلق، يحضرها المشاهدون في سياراتهم.

وفي الكويت حرية مقبولة في إبداء الرأي، وصحفها راقية وتقرأ. ولا تشعر بثقل الدولة وتســلطها. والذين التقيتهم من الكويتيين تركوا لدي انطباعاً بأنهم يفهمون مشاكل العالم العربي بشكل جيد.

وبقيت في الكويت حتى مساء ١٩٧٦/١٢/١٢، وكانت وجهتي الثانية مدينة الرياض.

السفر إلى السعودية

غادرت الكويت مساء ٧٦/١٢/١٢ متوجهاً إلى الرياض، واستغرقت الرحلة ٧٥ دقيقة استمتعت فيها بمناظر الكويت والرياض الجميلة من الجو ليلاً. ولم تكن إجراءات التفتيش في مطار الرياض شديدة كما كانت في مطار الكويت. ووصلت حقيبتي أول حقيبة، وسمحوا لي بإدخال نماذج كتب اصطحبتها، من دون النظر فيها، على عكس ما كان يقال عن تشــدد الإجراءات في مطار الرياض. وما أن تجاوزت حاجز المستقبلين حتى فوجئت بعدد من الزملاء في استقبالي، وأصر أقربهم إليَّ وأكثرهم مودَّة، بهاء محملجي، الصديق الشــهم الذي تحدثت عنه سابقاً، على استضافتي تلك الليلة في منزله.

وفي اليوم التالي انتقلــت إلى نزل المجلة العربية التي كنت أشــرف على طباعتها في بيروت، والمخصــص للضيوف. وقد أكرمنــي الزملاء والأصدقاء

بدعوات متلاحقة طيلة مدة إقامتي في الرياض التي استمرت أسبوعاً زرت خلالها وزارة المعارف ـ قسم المكتبات، والرئاسة العامة للبنات، وعدداً من المكتبات لتسويق كتب الدار. وقد تحدثت عن دعوة الأستاذ عبد العزيز الرفاعي سابقاً.

وفي التاسع عشر من الشهر ٧٦/١٢/١٩ حضر أخي مأمون من جدة وسافرنا معاً إليها. والرحـلات الداخليـة لا يخضع فيها المسـافر إلى إجـراءات التفتيش والجمارك.

أقلعت الطائرة في السادسة والنصف مساء، واستغرقت الرحلة ٥٥ دقيقة، وكان أخي قد ترك سيارته بجانب المطار، فاستقليناها إلى منزله. وصادف وصولنا مع قيام زوجه بإخراج النفايات من المنزل، ففوجئت بوصولنا، ورحبت بي، إذ تراني لأول مرة. ولم نجد صعوبة في التخاطب والتفاهم، فهي تعلمت بعض الكلمات العربية، وأنا أعرف قليلاً من الإنكليزية...

وكان منزل أخي رحباً وجميلاً، تحيط به حديقة صغيرة، فخصص لي غرفة في الطابق العلوي مـن الفيلا، ونمت بعمق بعد سـهرة طويلة فقد مضى علينا سنوات لم نجتمع خلالها.

ولاحظت أثناء إقامتي في جدة أنها متقدمة عن الرياض، وأكثر ترتيباً، وربما ساعد في ذلك الانطباع لطف الجو في ذلك الوقت. وقد أمضيت فيها أسبوعين.

في أول خميس اصطحبني أخي لأداء العمرة، فوصلنا مكة المكرمة مع أذان المغرب، فأديت صلاة المغرب جماعة، وطفت سـبعاً ثم سعيت، وانتهيت مع صلاة العشاء. وبعد الصلاة طفت طواف الوداع. وعندما انتهيت لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي اليسرى، ففي مفصل كاحلها خلل نتج عن انخلاع كعب نعلها يوم قصدت لبنان سيراً على الأقدام في الجبل الوعر كما ذكرت سابقاً. وقد أثر زحام بقايا الحجاج، والألم في قدمي على الروحانية التي كنت أحلم بها، وفي المكان المتفق عليه كان أخي بانتظاري، وعدنا سويّاً إلى جدة.

وفي اليوم التالي (الجمعة) العطلة الأسبوعية في المملكة، أصر أخي على أن يريني عجائب شواطئ البحر الأحمر، فهيأ مع عائلته وبعض زملائه وعائلاتهم لنزهة على الشـاطئ شـمال جدة. وأحضر لي جهاز تنفس أثنـاء الغطس، مع نظارات، وسكيناً تربط على الساق.

الشاطئ رملي، وعندما تنزل في الماء تمشي على صخر قاسٍ فيه كثير من النتوءات، مسافة قد تصل إلى ٦٠٠ متر أو أكثر، وبعدها يزداد البحر عمقاً. وفجأة يصل إلى زهاء ٣٠متراً أو أكثر. ومع ذلك توجد صخور ناتئة وسط الماء يمكن الوقوف عليها.

ومنظر البحر تحت الماء آية من آيات الجمال، فالمرجان كالأشجار العارية، إلا أنه مختلف الألوان والأشكال، ولما حاولت اقتطاع جزء منه خدشت أصابعي، ولم أحصل على بغيتي. أما الأسماك فتشكل طيفاً واسعاً من الألوان، بمختلف الأحجام والأشكال، وتقترب صغارها حتى تلامس زجاج النظارات، وكأنها مستغربة من وجود مخلوق غريب بينها تحاول استكشافه.. ويلفتك تضاريس في البحر لا تختلف عن تضاريس سطح الأرض، وربما أجمل منها بوجود نباتات بحرية مختلفة الأشكال والألوان. وكما تتنقل الطيور من شجرة إلى أخرى، تسبح الأسماك من صخرة مرجانية إلى أخرى.

ومع انشغال الإنسان بروعة المناظر وعجائب البحر، لا يُفارقه الخوف والحذر من أسماك القرش المنتشرة عادة في البحر الأحمر، والتي لا أظن أن السكين يمكن أن تحمي منها.

وهكذا فقد كان نهار الجمعة الأول رائعاً، ومع ذلك لفتني دموع تخفيها زوج أخي. وفهمت من حديثها مع أخي بالإنكليزية أنه يمنعها من التعري والسباحة، بينما نساء زملائه كلهم في ثياب البحر. ولما اختليت بها كانت فرصتي لأشرح لها لماذا كنت ضد زواجها من أخي. فهي تعرف ذلك، وتحمل في صدرها حقداً علي. فقلت لها: أنا لا أعرفك، وقد تكونين امرأة مثالية. ولكن البيئة التي نشأت فيها، والقيم التي تحملينها، تختلف عن بيئتنا وتقاليدنا وعاداتنا وقيمنا. وهذا يحول دون نجاح الزواج. فقالت لي: إنها تحب مأمون. فأجبتها: آمل أن يدوم هذا الحب... ولما كبرا، وكبر أولادهما تطلقا. وأظن أنه من النادر نجاح زواج من دون حدٍّ أدنى من الكفاءة بين الزوجين وتشابه البيئتين.

وقد أمضيت الأسبوع في زيارات المكتبات والأصدقاء، والحصول على طلبات من منشورات الدار. واتفقت مع صديقي محمد المعلم، صاحب دار الشروق، الذي التقيته صدفة، ودعوته إلى بيت أخي، أن نمضي يوم الجمعة في زيارة قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة. غادرنا جدَّة في التاسعة والنصف

صباحاً. واستغرقت الرحلة نصف ساعة. ولما خرجنا من المطار كان الجو لطيفاً، يميل نحو البرودة، واستمتعت برؤية بعض الحقول بعد أن حرمتها طويلاً.

وبعد زيارة قصيرة لإحدى المكتبات قصدنا فندقاً للاستعداد لصلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف.

وبعد سماع الخطبة والصلاة قمنا للتوجه إلى الحجرة الشريفة للدعاء عند المقام الكريم، فحمل المعلم حذاءه، وتركت حذائي. فقال لي: لماذا لم تحمل حذاءك؟ فقلت: لا أحب أن أقف أمام القبر الشريف أدعو وبيدي حذاء. فأعاد حذاءه، ثم حمله ومشى خطوتين، ثم أعاده.. وعند عودتنا نظر من بعيد وقال: هناك حذاء واحد، لا ريب أن حذاءك سرق، لأن حذائي كبير، ولن يأخذه أحد لأنه لا يستفيد منه.. وتبادلنا الضحك، وقلت له: السوق قريب وسأشتري غيره.

ولما وصلنا إلى المكان الذي تركنا فيه حذاءينا، تبين أن حذاءه هو الذي فُقِد. ولكن النكتة لم تفارقه، فقال: إن الذي سرقه حمار، فهو لن يستفيد منه... وارتبك بعض كرام المصلين الذين رأوا ذلك. ولم يعرفوا كيف يقدمون لنا المساعدة، وأحضر أحدهم مشاية، وتوجهنا إلى سوق الأحذية، وهو تجاه باب الحرم الذي خرجنا منه. ولكنه لم يستطع العثور في السوق كله على حذاء بمقاس رجله، فاشترى «صندلاً» مناسباً انتعله، وقصدنا منزل صديق دعانا للغداء عنده وبعد الغداء عدنا إلى المسجد فصلينا العصر. وفكرنا بالعودة بالسيارة للاستمتاع بمناظر الطريق. ثم عدلنا عن ذلك لقرب حلول الظلام، وصعوبة رؤية تلك المناظر ليلاً.

وفي المطار يومها لم يكن الحجز المسبق متوافراً، وتبقى في المطار على أعصابك تنتظر حتى تتوافر طائرة، ويتوافر ركاب. وهكذا بقينا حتى منتصف الليل فأقلعت بنا الطائرة. وكانت تسليتنا طرائف محمد المعلم وما يؤلفه عن حذائه وكيف أننا نقضي ليلة رأس السنة في الجو.. ولاريب أننا حققنا ما نريده من الزيارة، ولكن قصر مدتها جعلها غير منتجة، وغير مربحة.

وكنت قد عزمت على العودة إلى بيروت يوم الأحد في ١٩٧٧/٠١/٠٢. فقصدت مكتب شركة الطيران يوم الأربعاء لإجراء الحجز بحيث يكون لدي متسع من الوقت يسمح بوصول برقية إلى بيروت بخصوص وقت وصولي.

كان الموظف في الشركة يتحدث مع صديق له يرغب في السفر صباح يوم الخميس، وسلمه برقية ليرسلها بالتلكس. وعندما انتهى طلبت منه أن يحجز لي يوم الأحد. فأخذ جواز سفري وبطاقة الطائرة، وأجرى الحجز واحتفظ بالجواز. ولم أكن على علم بهذه الطريقة والإجراءات. فطالبته بالجواز فلم يسلمني إياه إلا بعد أن تأكد من حاجتي إليه. ولما ذكرت ذلك لأخي الذي كان ينتظرني في السيارة، أعلمني بأنهم في الشركة يتبعون هذه الطريقة لسرعة إنجاز المعاملات في المطار. واقترح أن أعود لأسأل الموظف عما إذا كان بإمكاني تسليمه الجواز قبل سفري بيوم واحد. ولما سألته فاجأني بقوله: أليس سفرك غداً؟! وذكرته أنني طلبت الحجز ليوم الأحد. فأخذ البطاقة وعدَّل عليها التاريخ. وعدت إليه يوم السبت وسلمته جواز السفر.

كان موعد إقلاع الطائرة في التاسعة صباحاً، ويفترض بي أن أكون في المطار في السابعة والنصف، فاستيقظت قبيل السابعة، وبدأت بالتجهز للتوجه إلى المطار، فجاءني اتصالان هاتفيان أخراني قليلاً، وواجهت ازدحاماً في الطريق جعلني أصل إلى المطار في الساعة الثامنة. فتوجهت مسرعاً إلى مكتب شركة الطيران لأفاجأ بموظف لئيم قال لي: لقد أقفلت الطائرة، فدهشت وقلت له: باقي ساعة على الإقلاع. فأجابني: الإقلاع في الثامنة وعشر دقائق. ونظر في البطاقة، وقال: من سجل هذا التوقيت؟ ليس من المعقول أن يسجلوه في الشركة. أي هو يتهمني بالتزوير. فانزعجت منه جدّاً، وقصدت موظفاً أعلى منه، فكان لطيفاً وخرج معي من غرفته مؤكداً لي حرصه على مساعدتي، وسلمني بطاقة صعود إلى الطائرة. فأسرعت إلى مكتب الجوازات الذي لم يؤخرني. وكانت المفاجأة أنني وجدت الركاب، وبعضهم في المطار من السادسة صباحاً، لا يزالون ينتظرون الصعود إلى الطائرة لأن موعد الإقلاع تأخر ساعة.

وبعد طيران ساعة بدأت درجة الحرارة بالهبوط، وأعلمنا الطيار أن الجو ماطر في بيروت. وكنت أول من يخرج من الطائرة ويدخل المطار الذي كانت تخيِّم عليه الكآبة وآثار الحرب. ولما انتهيت من إجراءات الأمن العام توجهت إلى هاتف في المطار لأتصل بالجيران مستفسراً عن الطريق.

فعلمت منهم أن البرقية لم تصل، وأصر أحد الجيران (حسان شاتيلا وزوجته سونيا بيروتي) على أن أنتظرهم في المطار فهما سيحضران لاصطحابي إلى

المنزل. وما أن أنهيت مكالمتي حتى تقدم مني أحد رجال الجمارك يعرض خدماته. فقلت له ليس معي شيء. ولكنه بقي بجانبي.

وأخذ حمال حقيبتي، وتقدمنا من منصة التفتيش. وحاولت أن أفتح الحقيبة، فقال مرافقي من رجال الجمارك لزميله: لا يوجد ممنوعات على مسؤوليتي. فقال لي المسؤول عن التفتيش: مع السلامة. وخرج الحمال بالحقيبة بينما كنت أدس عشر ليرات في يد رجل الجمارك، ويجول في خاطري تساؤل: متى يفكر بعض اللبنانيين بمصلحة وطنهم كما يفكرون بمصالحهم الشخصية؟! فما أدرى ذلك الموظف الذي لا أعرفه ولا يعرفني ما يمكن أن يكون مخبأ في الحقيبة، والحرب الأهلية مازالت قائمة؟! وأعلمني جاري في طريقنا إلى المنزل أنه علم بوجود حاجز سوري عسكري على الطريق، فخشي تعرضهم لي ما جعله يصرُّ على اصطحابي ومعه عائلته.

الوضع بعد دخول الردع

عادت أم شاكر إلى بيروت، بينما بقي الأولاد في المدارس في دمشق، إذ حصل هدوء نسبي في البلد، ولكن ضبط قبضايات المناطق، وقادة المحاور، الذين برزوا في الحرب، وذاع صيتهم، لم يكن بالأمر السهل. فهم اعتادوا على التحكم بالناس، والاعتداء عليهم، والسرقة، والتقاتل فيما بينهم لأسباب كثيرة.

واستوعب بعضهم الوضع الجديد، فانكفأ على مضض، وهرب قسم إلى الخارج بأموالهم التي جنوها، وبينهم بعض ضباط الجيش العربي... بينما تمرَّد آخرون وقاتلوا ولم يستسلموا حتى اعتقلوا أو قتلوا.

ودفع الهدوء النسبي والأمل بانتهاء الحرب إلى غير رجعة، أصحاب البناية التي يقع فيها مكتبي إلى إعادة تركيب أبواب المكاتب التي سرقت، والزجاج الذي تحطم. وعدت إلى الدوام كالمعتاد.

وعلى الرغم من التدمير والخراب الذي حلَّ بلبنان، حافظت الليرة اللبنانية على قيمتها نتيجة التمويل الخارجي الذي كان يتدفق على لبنان. وقد تبيَّن أن لبنان، وبخاصة المنطقة الحرَّة في المرفأ، كان مخزناً كبيراً لمختلف البضائع التي تحتاجها المنطقة العربية الآسيوية. وقد وضعت قوات الأمر الواقع يدها عليها، واستثمرتها أسوأ استثمار، فكانت تأخذ من أصحاب البضائع خوّات توازي قيمتها

أحياناً أو أكثر مقابل السماح بإخراجها. ولم يكن من السهل عليها التخلي عن باب تتدفق منه الأموال، حتى أن القوات اللبنانية بقيت فترة طويلة تستثمر الحوض الخامس في المرفأ.

وكانت البنوك اللبنانية متواضعة تكفي لسدِّ حاجات لبنان. ومعظمها يكتفي بمركز واحد بلا توسُّع يفيض عن حاجات البلد. وقد تهدم البنك الذي أتعامل معه، وبما أنه لا خبرة لي في أعمال البنوك وطريقة حفظ الأموال في البنوك وإدارتها توقعت أنني فقدت ما لدي من مال في البنك. ولما علمت بمباشرته أعماله في مكاتب مؤقتة قصدته أسأل عن حسابي، فلم يتلكأ بتسليمي شيكات بالمبلغ الذي لي أعدت معظمها إليه لاحقاً.

وقد كان بعض قادة القوات السورية التي دخلت لبنان من أصدقائي أو معارفي، ولكنني تحاشيت الاتصال بأي منهم، كما كنت أتحاشى قدر المستطاع الحواجز العسكرية السورية.

وقد كثرت الشائعات عن تصرفات عناصر هذه الحواجز وتجاوزاتها، وشاع التندر بها، وتداولها الناس في سهراتهم ولقاءاتهم. ولاريب أن كثيراً مما كان يروى عن تصرفات الجنود السوريين والطرائف التي تتناقل عنهم كان مبالغاً فيه، أو مختلقاً، ونابعاً من اختلاف الثقافات واللهجات والقيم أحياناً. ولكن دوافع تناقله والمبالغة فيه، لاريب يعود إلى رفض الوجود السوري في لبنان.

وبما أن عدد الجنود السوريين الذين دخلوا إلى لبنان كان كثيراً، وهم من مناطق مدنية أو ريفية مختلفة. وبينهم كثير من جنود الاحتياط، فلم يكن من المستغرب سوء تصرف بعضهم.

ومما رأيته وآلمني، ونقشت صورته في ذهني، عسكري يحمل بيد كيساً وبأخرى بندقية، ويدور في تجمع لعربات الخضار فيأخذ من كل عربة حبة مما عليها، من دون إذن صاحب العربة، ويضعها في الكيس. وجندي آخر يرتدي بيجامة ظاهرة تحت لباسه العسكري.

ولا أنسى أنني كنت مرة في طريقي من مكتبي إلى منزلي بسيارتي، وبجانبي صاحب مطبعة، وفوجئت بحاجز جديد على رأسه ملازم سوري، يوقف السيارات ويطلب الهويات ما أدى إلى تجمع كبير للسيارات. فتوجست منه، وفجأة انهمرت

بعض القنابل بعيداً عنا، فقلت له: ألا تسمع القنابل؟! مشِّ السير، فإذا سقطت قذيفة على هذه الجموع أدَّت إلى خسائر كبيرة.. فعدل وقفته وقال لي: حاضر.. وأسرع بفتح الطريق وحث السائقين على السرعة.. فاستغربت تصرفه الذي عزاه مرافقي إلى لهجتي السورية وطريقة مخاطبته.

ومرة أوقفني حاجز وطلب مني العسكري فتح صندوق السيارة وكان فيه صندوق كتب فسألني ما فيه، فقلت كُتُب بضمِّ التاء. فأساء التصرف معي، وفهمت منه أثناء الجدال أنه ظنني أتهكم عليه، وكان عليَّ أن أقول كتْب بتسكين التاء.

ومن جانب آخر فقد تعلمت من عسكري آخر درساً، إذ كان يقف على جانب الطريق يحمل بيد بندقية وبأخرى سحّارة صغيرة. وأومأ إلى سيارة بالتوقف، وأنا أراقب من بعيد، وبدا لي أن السائق رفض طلب العسكري بجلافة، وأقلع بشكل عنيف يدل على انزعاج وإهانة للعسكري، فتعمدت الوقوف على الرغم من عدم إشارة العسكري لي، وسألته عن وجهته، فأعلمني بأدب، فسألته إن كان يناسبه أن أحمله معي نصف طريقه، فرحَّب بذلك. وأثناء الطريق سألته مستغرباً سلوكه مع السيارة التي سبقتني المختلف عن زملائه، فقال لي: «يا عم، «لو خليت خربت»، أنا ابن عائلة مربى في بيت أهلي، وأؤدي خدمة العلم». فحفظت ذلك المثل، وأيقنت بوجود أخيار كثيرين مقابل الأشرار، ومهذبين مقابل الوقحين.

وكانت أم شاكر تقسم وقتها بين بيروت ودمشق، وكنت أتألم لما تعانيه مع الأولاد، ولا سيَّما أوسطهم، الذي كان يهرب من المدرسة، ويكره الدراسة. وكان في عمر يصعب ضبطه، خمسة عشر عاماً، وبخاصة أنه كان شرساً، قوي البنية، ويشعر بعقدة اضطهاد الولد الوسط.

فخطر لي السعي للسماح لي بالعودة إلى سورية، فالنحلاوي زعيم انقلاب ٢٨ أيلول ١٩٦١ عاد، ودوري لا شيء مقابل دوره. والدكتور مروان المحاسني سمح له بالعودة أيضاً، وهو أمين عام الجبهة الوطنية الدستورية التي حكمت بسببها مع أنني أمين السر. ولكن يبدو أن للسلطة تقديراً آخر. وعلى الرغم من معرفتي بذلك حدثت نفسي بالمحاولة. وصادف أن زارني المحاسني، فعرفت منه أنه أصبح الطبيب الخاص للواء عبد الرحمن الخليفاوي، رئيس الوزراء، ونشأت بينهما صداقة ومودة، فاتفقت معه أن يبحث موضوعي معه، وبعد أيام أعلمني بترحيب خليفاوي بالأمر، ولكنه ليس بيده بل بيد الرئيس، وهو يحتاج

إلى طلب من زوجتي أو أحد أفراد أسرتي، ليتمكن بناء على الطلب من بحث الموضوع مع الرئيس. فلم أمانع. وحدد خليفاوي موعداً لزوجي بوساطة المحاسني في مقرِّ رئاسة مجلس الوزراء. وأعلمتني لاحقاً أنه استقبلها في الوقت المحدد، وكان مهذباً جدّاً ولطيفاً، فسألها عني وعن أخباري وعملي، مع أنني أظنه لم يعد يذكرني إلا بالاسم، إذ لم تتجاوز علاقتنا علاقة مدرس ميكانيك في مدرسة المدرعات بطالب عنده. ولما طلبت منه صورة بعد سنوات لوضعها في أحد الكتب قال للصديق المشترك (ممدوح رحمون) ممازحاً: من أين تعرفه، فهذا صاحب مشاكل، هل بطَّلها؟ وأرسل لي صورة جيدة.

وفهمت أم شاكر منه أنه من الأفضل لي متابعة عملي في لبنان طالما هو جيد، وأنه على كل حال سيبذل جهده لإنهاء قضيتي والسماح لي بالعودة إلى سورية، ولكن القرار ليس بيده بل بيد الرئيس.

وبعد أيام همس في أذن والدي مبشراً شخص من قريتنا يعمل في القصر الجمهوري بأنني سأكون في سورية خلال أيام. وفسَّر بشارته بأنه رأى على طاولة الرئيس أثناء ترتيبها ملفّاً يحمل اسمي، ومن عادة الرئيس ألا يطلب ملفّاً إلا إذا كانت قضية صاحبه منتهية.

وجاءت أم شاكر من سورية تحمل لي الأخبار السارة، ولكن الأيام مضت، وطال الانتظار من دون جواب، فأدركت أن الملف أعيد إلى مكانه، وقد أضيف إليه الطلب مع تعليق بعدم الموافقة. فطويت الموضوع نهائيّاً، ولم أعد أطرحه.

الوضع العام أوائل ١٩٧٧

في العام ١٩٧٧م كان للكتاب الورقي أهمية خاصة، وكان سوقه رائجاً، وبما أنني في مدَّة الحرب، التي سميت «حرب السنتين» بقيت محجوزاً في بيروت لا أستطيع السفر، أو العمل من مكان آخر كما فعل معظم الناشرين اللبنانيين، فقد كان عليَّ بعد الهدوء النسبي الذي رافق دخول قوات الردع العربية أن أعمل عملاً مضاعفاً لتلبية طلبات العملاء، ولإصدار المجلة العربية من جديد بعد توقفها طيلة مدة الحرب.

أما الوضع العام في لبنان، فيمكن تلخيصه بأنه أصبح للدولة رئيس جديد منتخب وفق الدستور شكلاً، وفي الواقع مختار بالاتفاق بين معظم الدول المؤثرة

في الحرب اللبنانية. وتحت أمرته قوات ردع عربية كبيرة تشكل جيشاً، وهذا وفق القرارات على الورق لا غير. وقوامها الرئيس قوات سورية.

وبلد مقسم أنشأ العدو في جنوبه ما سماه «الجدار الطيب» فنزع الأسلاك الشائكة، ومحا علامات خط الهدنة، وشكَّل ما سمي بـ«جيش لبنان الجنوبي» برئاسة الرائد سعد حداد الذي انشق عن الجيش اللبناني. لذلك كان يسمى أحياناً «جيش سعد حداد». وكان العدو يقدِّم منذ مدَّة لسكان تلك المنطقة الممتدة على طول الخط الفاصل بعمق بين ٤ و١٢ كم مساعدات مختلفة، وبخاصة الطبيَّة، ويشتري منتجاتهم، ويبيعهم بضائعه، واتخذ من بعضهم جواسيس.

وكانت الجبهة اللبنانية (المسيحية) تسيطر على المنطقة الشرقية من بيروت وجميع المناطق والبلدات الجبلية المسيحية بواسطة ما سموه «القوات اللبنانية» التي كانت تضم قوات الكتائب، ونمور الأحرار التابعة لشمعون، والمردة التابعة لفرنجية، وبعض التنظيمات الأقل شأناً. وهي راضية عن التدخل السوري عكس ما كان عليه الحال قبل مدَّة قصيرة. ولكن كثيراً منهم ينظر إلى الوجود السوري في مناطقه بريبة وامتعاض، بينما كانت بعض القيادات المسيحية تتابع اتصالاتها بالعدو الصهيوني الذي فرض نفسه، وتابع إرسال الأسلحة إلى أعوانه، على الرغم من جمع معظم الأسلحة الثقيلة بإشراف قوات الردع العربية في المناطق الإسلامية، أو ذات الأغلبية المسلمة، فقد كانت السيطرة فيها للمنظمات الفلسطينية، وما عرف باسم «القوى الوطنية» التي تألفت من الحزب الاشتراكي بقيادة كمال جنبلاط، ويضم مقاتلين دروزاً أشداء، والحزب الشيوعي، والمرابطون، وهو تنظيم سني قومي، ومجموعات أخرى أقل شأناً، وكلُّها متعاونة مع المنظمات الفلسطينية. وكلُّها ضد الوجود السوري في مناطقها، بدرجات متفاوتة، حتى أن بعضها يعدُّها عدوَّة، ويرضى بوجودها مرغماً.

ولم تكن المنظمات المنضوية تحت قيادة «الجبهة اللبنانية» منضبطة تماماً تحت قيادتها، وربما اختلفت توجهاتها، ومن المؤكد اختلاف مصالحها. وكذلك فإن الجماعات والأحزاب المنضوية تحت اسم «القوى الوطنية» كانت أكثر انقساماً واختلافاً في التوجهات والمصالح.

هذا من جهة الجماعات والطوائف اللبنانية، أما قوات الردع العربية، فقد تعرضت لمحاولة اختصارها والسيطرة على قرارها من قبل سورية التي حاولت

منذ بداية الأزمة اللبنانية التفرد بحلها وبقرار لبنان. ما جعل حالة من العداء تسود بين الأسد وعرفات طيلة حياتهما.

وقد وصف باتريك سيل الوضع من وجهة نظره المتماشية مع ما يراه الأسد، فقال:

«وهكذا أصبح المسيحيون ناكرين للجميل، والدروز مليئين بالمرارة، والثوريون المتشددون ومن كل الأنواع والدرجات باحثين عن الانتقام. أما الفلسطينيون فأصبحوا معادين، واستمروا يحملون السلاح. وأما «إسرائيل» التي أصبحت جزءاً من المسرح السياسي اللبناني، كسورية تماماً، فقد صار بمقدورها التحرش بالأسد كما تشاء وعلى هواها. ذلك أن الأسد في سعيه للدفاع عن بيته، قد سقط في الفخ اللبناني»[1].

ولاريب أن سورية دفعت لاحقاً ثمناً غالياً نتيجة تدخلها في لبنان بالشكل الذي تدخلت فيه.

وأدى دخول قوات الردع العربية إلى هدوء وأوضاع شبه طبيعية في بيروت، وعدت إلى الدوام في مكتبي كالمعتاد، وعادت أم شاكر إلى بيروت بينما بقي الأولاد في بيت جدهم في دمشق يتابعون دراستهم.

اغتيال كمال جنبلاط

في ٧٧/٠٣/١٦ عدت ظهراً إلى المنزل، فوجدت جارتين في زيارتنا متجهمتي الوجه، واستقبلتاني بنظرات مريبة ووجوه عابسة، فسألتهما: ما بالكما؟ فأجابت الدرزية: قتلوا كمال جنبلاط. قلت: ومن قتله؟ قالت بلؤم: من غيركم؟ فأدركت أهمية ابتعادي عن الاختلاط بالضباط السوريين، وحاولت تطييب خاطرها قدر المستطاع. فقد كان أخوها أحد مرافقي جنبلاط.

وقد زاد ذلك الاغتيال الحقد والمرارة عند الدروز، والاستياء الشديد عند القوى الوطنية. ولكن حاجة كل طرف إلى الآخر جعلت وليد جنبلاط يزور سورية سرّاً بعد مدَّة وجيزة من اغتيال والده. فالدعم الإسرائيلي يتدفق على المسيحيين، والحقد الدفين بين الموارنة والدروز لا يمكن محوه من النفوس، والحرب في الجبل قادمة لا محالة. وليس للدروز غير سورية دعماً وملجأ،

---

(١) ينظر سيل، باتريك، م.س. الفصل ١٧ الفخ اللبناني، ص٤٣٣.

وبخاصة أن السادات يبيع قادة العرب في سورية والأردن والسعودية وعوداً، ويشارك في اتفاقات وقيادات مشتركة... وفي الوقت ذاته يتابع اتصالاته بالأميركان لترتيب الصلح مع «إسرائيل». وفي عالم متقدم تكنولوجيّاً لا تخفى على مخابرات الدول خافية. وإن كان كثير من التحركات، وبخاصة زيارات الرؤساء وكبار المسؤولين علنية ولا يمكن إخفاؤها.

وكان كارتر الديمقراطي قد انتخب رئيساً للولايات المتحدة عام ١٩٧٧ وتسلم وزارة الخارجية سايروس فانس. فبدأ العهد الجديد بذل جهود حثيثة لإبرام اتفاق صلح بين مصر والعدو الإسرائيلي.

وفي خلال زيارة بيغن، رئيس وزراء العدو، واشنطن في ١٩٧٧/٠٧/١٨ عرض مشروعاً للسلام سماه باسمه، فحمل سايروس فانس رسالة من كارتر إلى السادات مفادها أن بيغن جاد في السلام، وحان الوقت لاستغلال الفرصة والدخول في مفاوضات جديَّة للسلام. وبالإضافة إلى نشاط الديبلوماسية الأميركية كان الملك الحسن الثاني، ملك المغرب ينشط أيضاً مع حسن التهامي أحد ضباط ثورة يوليو، ونائب رئيس الوزراء المصري، والوزير والمستشار المقرب من عبد الناصر والسادات، الذي يسمونه الرجل الغامض هذا من جهة، ومع موشي دايان وزير دفاع «إسرائيل» من جهة أخرى. والتي أثمرت لاحقاً اقتراح السادات أن يتوجه بنفسه إلى فلسطين المحتلة، ويلقي كلمة أمام الكنيست لإزالة الجمود في المحادثات، وكسر حاجز الخوف. فكانت الزيارة الشهيرة التي سأتحدث عنها لاحقاً.